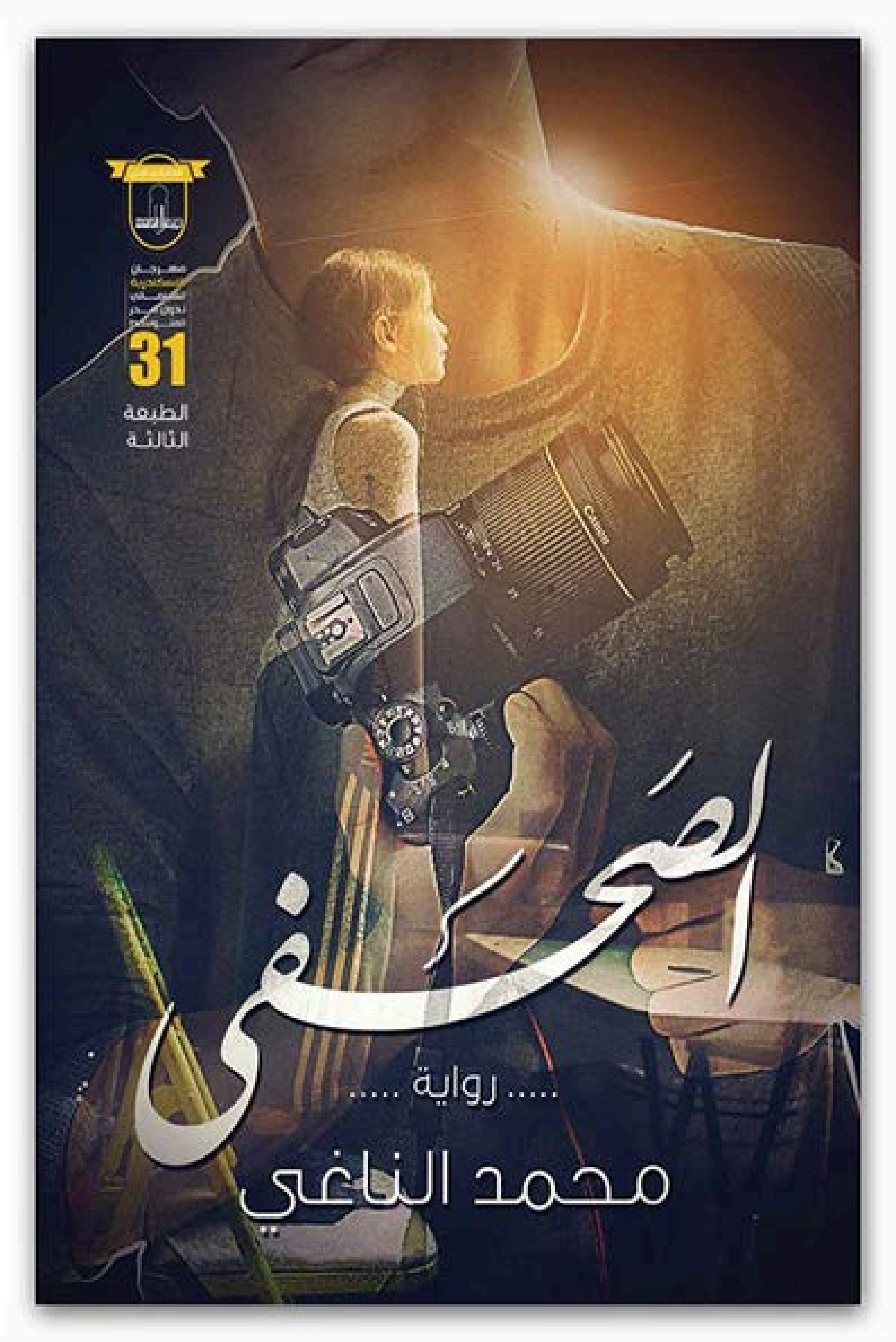


31
الطبعة
الثالثة
الصحفي
..... رواية .....
محمد الناغي

الكتـــــــــاب: رواية الصحفي
المــــؤلــــــف: محمد أحمد الناغي
الغـــــــــلاف: أ/ كريم آدم
المراجعة اللغوية: أ/ سلام عيدة
رقـــم الإيـــداع: 14223 / 2014
الترقيـم الدولـي: 3 - 81 - 6447 - 977 - 978
الإخـراج الفنـــي: أ/ حسين الحماقي - ت/ 01006674335

المدير العام: عيد إبراهيم عبدالله

العنوان: 6 ش التحرير، الدور 18، أمام محطة مترو البحوث، الدقي، الجيزة
هاتف: 0237621688 - موبايل: 01142050403
الموقع الإلكتروني: www.ibda3-tp.com
البريد الإلكتروني: info@ibda3-tp.com

روايــة الصحفــي

الفائزة بجائزة المجلس الاعلى للثقافة ٢٠١٤

محمد أحمد الناغي



ثمة لحظة فارقة، لا تعود الحياة أبداً؛

كما كانت قبلها . . .

محمد الناغي

إهـــداء

في البدء كانت فكرة هذا العمل لسيناريو سينمائي، لم تكن لدي النية لأكثر من ذلك، ولكن زوجتي العزيزة بعد قراءته مكتملاً أصرت على تحويله لرواية. لعل الشائع أن تُحوَّل الرواية لسيناريو، ولكن أن يُحوّل السيناريو لرواية؛ هذا ليس مألوفاً..

ولكني استجبت لرغبتها، لتفوز الرواية بعدها بفضل من الله بجائزة المجلس الأعلى للثقافة، ثم تخرج مطبوعة لتكون بين يدي القاريء الكريم.

لذا، زوجتي الحبيبة.. لكِ كل العرفان.

محمد الناغي

١

انعكست الأضواء الباهرة المميزة لليل القاهرة على السماء السوداء، فَتَوَارَت النجوم وانطمس بريقُها، بينما في الأسفل تعالَى نفيرُ السيارات وتداخلَ، ليصنع سيمفونيةً عشوائيةَ الأداء، مزعجةَ النغمات، ورغم أنّ هذه المنطقة من أرقى المناطق المُطِلّة على النيل، إلّا أنها لم تَسْلمْ من الزحام الذي لا ينقطع ليلاً ونهارًا.

وفي الأعلى، حيث إحدى البنايات الشاهقة الارتفاع، بَدَتْ كافّةُ النوافذ الزجاجية مظلمةً ومُغلقةً، إلا نافذةً واحدةً، خرجتْ منها مُقدّمة كاميرا بدا من طول مقدمتها أنّ درجة تكبيرها عاليةٌ بشكلٍ احترافيٍّ.

وفي الداخل، انهمك شابٌّ مُتحرِّر الثياب بتدعيم الكاميرا فوق عامود التثبيت، جعل يتبادل النظر بين الشاشة الصغيرة في خلفية الكاميرا، وبين نقطة ما في البناية المقابلة، بعد عدة تعديلات بسيطة بدت على وجهه آيات الرضا، تأمل الشاشة التي تنقل غرفةً ساكنةً خاليةً، تحركت أنامله بخفةٍ لتَزيد من درجة التقريب، تأمل الغرفة الخالية لفترةٍ قبل أن يتململ قائلاً بسخريةٍ: "ماذا بعدُ يا فاتنة السينما

البائدة؟ أين ذهبتِ بالرجل؟!"، وما إنْ أتمّ عبارته حتى اعتدل بغتةً بانتباهٍ، وبحركةٍ خافتةٍ ضغطتْ أنامله على زرّ التسجيل، بعد أن دخل كادر كاميرته فجأةً امرأةٌ باهرة الحسن ترقص بميوعةٍ وإغواءٍ لرجلٍ في أواخر العقد الخامس، يتمايل معها بحركاتٍ مُبتذلةٍ.

تراقصت ابتسامةٌ جذلى في عينيْ حاتمٍ، وهو يتناول هاتفه المحمول ليضرب رقمًا ما، فيما عيناه مثبتتان فوق شاشة كاميرته، ساخرًا هَاتفَ مُحدِّثه:

- نعم يا ضاحي، الصيد وقع في المصيدة ومُجونُهم قيد التسجيل، ساعةٌ على الأكثر وأرسله إليك، ابدأْ مِنذ الآن بالاتصال بوكالات الأنباء والمحطات الأجنبية، أريد أعلى سعرٍ لهذه المادة.

بدا عليه التركيز وهو يستمع إلى مُحدِّثه، قبل أن يرد:

- لا تُغرقني في التفاصيل! أنا رجلٌ صحافيٌّ وأنت مدير أعمالي، والتسويق هو صميم عملك. قلْ لهم: "النجمة المعتزلة للمرة الثالثة خلال سنتين، بحوزتي تسجيلٌ وصورٌ لها مع عشيقها رجل الأعمال (الفِلّ) الكبير."

سكت لثانية وهو يختلس النظر إلى شاشة كاميرته ثم أطلق ضحكةً خسيسةً قائلاً:

- أعلم طبعا أننا من (الفلول) الأُصُلِ.

وأصغى لثانيةٍ قبل أن يردف ساخرًا:

- معك حق، لم يعد يُطلق على أمثالنا لقب (الفلول)، فقد صرنا نحن الأمل الآن.

ثم استدرج مُستعيدًا جديته: "لا تنس المحطات المصرية الخاصة، اتصل بالمُعِدّين وأسِلْ لُعابهم. أكيدٌ سيشترون لأجل زوج الفنانة القياديّ السلفيّ، الكلُّ متربصٌ، هذه فضيحة لن يفَوّتوها، أرني شغلك، طريقك أخضر."

وأنهى المكالمة ليعود بتركيزه إلى شاشة كاميرته التي تنقل مشهدًا غراميًّا بين الفنانة وعشيقِها رجلِ الأعمال، وهي تتقافز لاهثةً فوق العشيق الجالس على الكرسي، وجهها للنافذة فيما لا يظهر من العشيق سوى ظهره.

ظَهَرَ التمَلمُلُ على وجه حاتم، جعل يراقبهما لبرهةٍ قبل أن يقول مُتهكِّمًا: "ألمْ تَمَلْ من هذا الوضع؟! المرأة أُرهِقت!"، وأسند حاتمٌ كفيّه أسفل وجنتيه. أخذ يراقب المرأة التي تتقافز بنشاطٍ جَمٍّ. نهض فجأةً ليثبِّت زاوية الكاميرا عبر الحامل وهو يقول في نفسه (لأ؛ إلى أن تنتهوا؛ أعد أنا لنفسي كوبًا من الشاي!) .

وبينما انهمك بصَبِّ الماء وتشغيل سخّان الشاي، لم ينتبه إلى مقدمة كاميرته التي انخفضت مُقدِّمَتُها لسنتيمترٍ واحدٍ.

عاد حاتمٌ وفي يده الفنجان الساخن وبخاره يتصاعد، جلس على طرف المقعد يعاود متابعة التسجيل، ولم يكدْ يعي ما تنقله الشاشة حتى نهض فجأةً بانزعاجٍ.

انسكب الشاي الساخن ليحرق يده؛ إثْر حركته المفاجِئة، فظهر عليه الألم والسخط والعصبية، فجعل يُحرك يده بسرعةٍ عسى أن يُخفف الألم عنها.

انحنى إلى الحامل ليُعيد ضبط وضعية الكاميرا، تلاقت عيناه مع الشاشة ليحدق فيها باستغرابٍ قبل أن يزوّي ما بين حاجبيه بذهولٍ؛ إذ نقلت الشاشة، ما يحدث عبر نافذة البناية المقابلة لبنايته، ليرى مكانًا خافت الإضاءة، يتمدد فيه رجلٌ في أواخر الأربعينات، على بطنه فوق طاولةٍ معدنيةٍ، عاريًا وإنْ ستره الضوء الخافت، تنغرس في أنحاء جسده خطاطيفُ مشدودةٌ بحبال إلى السقف، يتمايل الرجل مرتجفًا وكأنما يصرخ، فيما تسيل الدماء من مواضع الخطاطيف.

تراجع حاتم وقد عبَّرت قسماته عن أعتى تعابير الانزعاج، قام بزيادة درجة التقريب فيما عيناه لا تبرحان الشاشة التي نقلت رجلاً قبالته يجلس في الظلام، لا يظهر منه إلا طرف سيجاره المشتعل يُلوّح بها بعصبيةٍ.

توتّر حاتم وهو يجثو على ركبتيه بوَجَلٍ، أخفض رأسه كما لو كان يخشى أن يراه هؤلاء، توترت عيناه فيما داعب ذقنه النابتة وقد بدا عليه التفكير العميق، وما لبث أن حسم أمره، فقام في عُجالةٍ إلى حقيبته الجلدية السوداء، ليُخرج منها عصا متوسطة الطول، تنتهي بطبقٍ استقبالٍ شبكيٍّ صغير. ثبّته على إفريز النافذة وقلبه يضطرم انفعالاً، وجَّهَ مقدمة العصا التي تشبه مكبر الصوت نحو النافذة التي يصورها، قبل أن يعود سريعًا إلى موقعه وراء الشاشة ليرتدي سماعة رأسٍ ويشرع بالاستماع متلهفًا.

***

انعكس ظِلّا رجليْن على حائط الغرفة ذات الإضاءة الخافتة. كان كلاهما يضع يده على سلاحه المستقر في حزامه بتربُّص، فيما يرمقان الأرجاء بتَحَفُّزٍ. نفث رجلٌ يرتدي بدلةً أنيقةً دخانَ سيجاره ببطءٍ، وهو يرمق الرجل البدين العاري الممدد فوق المنضدة المعدنية، تأمل الدماء التي تسيل ببطء عن موقع الخطاطيف المعلقة بجسده قبل أن يُحدّثه بنبرة بطيئةٍ وقاسيةٍ: "هل تعلم ماذا سيحل بك إن أزحت الطاولة التي تحتمل جسدك الثقيل هذا؟"، وتوهّج سيجاره وهو يسحب نفسًا طويلاً منه قبل أن يستطرد: "بسبب وزنك الثقيل لن يحتمل لحمُك ثِقَلَكَ المُحَمَّل على

الخطاطيف، فتُفلِتَك لتهوي أنت إلى الأرض، فيما ستحتفظ هي بقطعٍ من لحمك النجس." جحظت عينا الرجل العاري، فيما ذي السيجار يُتابع: "لن تهوي إلى الأرض وينتهي الأمر بمجرد نزيفك، قبل أن تمسها ستستقبلك خوابيرُ مخروطيةٌ من الحديد الصدئ، ستستقبل جسدك الهاوي، وتخترقه. ستشعر بكل لحظة ألمٍ، بكل نقطة دمٍ تنزفها. لن أدع روحك تفيض إلا بعد خروج آخرٍ نقطة دمٍ عندكَ." في ذات اللحظة شعر الرجل العاري بحقنةٍ تُدَسُّ في وريده العنقي، أخذ يتملص بعنفٍ فانغرزت الخطاطيف أكثر في جسده، جعل يصرخ صرخاتٍ رهيبةٍ، قبل أن تتهاوى رأسه بإنهاكٍ، كان لا يزال واعيًا، هتف به الرجل ذي السيجار: "هذه الحقنة كي تحتفظ بوعيك فلا تفقده بسبب شدة الألم، تحوي قدرًا من الأفيون النقي مع بعض المواد المنبهة، أنت طبيب طبعا وعلى علمٍ بهذه التركيبات." صرخ الرجل العاري كالمجذوب: "وماذا فعلتُ أنا لتفعل بي كل ذلك؟" أفلتت في ذات اللحظة أحد الخطاطيف جسد الرجل البدين العاري، لتتأرجح وقد خرجت بقطعة من لحمه؛ فجعل الرجل يصطرخ صرخاتٍ مريعةٍ هيستيريةٍ هائلةٍ.

نزع حاتم سماعة الرأس عن أذنيه بعنفٍ، وقد شحب وجههُ، وانفرجت شفتاه بغير تصديق. شردت عيناه في الفراغ لثانيةٍ، قبل

أن يهبّ ليطفئ كاميراته، ويُلملم أجهزته بعجلةٍ فوضويةٍ، مُحدثًا نفسه بوَجَلٍ (ما هذا الذي سمعَتْه أذناي؟ وما هذا الجو؟! رجالٌ مسلحون ورجلٌ عارٍ يُعذّبْ!). انتهى من تجميع حاجياته، فطوَّح حقيبته فوق ظهره فيما استطرد (مثل هؤلاء إن لمحوني؛ لن يمزحوا معي؛ قتلٌ فوريٌّ). وبينما كان يُغادر الغرفة المستأجرة، كان رجلٌ أنيقٌ مُسلحٌ يُطِلُّ من نافذة غرفة التعذيب، وقد غطّى وجهَه منظارٌ مقربٌ، وقد وجّهَهُ صوب نافذة حجرة حاتم.

***

وقف شابٌّ وِقفةً مسترخيةً، يرتدي بنطالاً واسع الخصر، قد انحصر نوعًا ليكشف جزءًا من سرواله التحتي المزركش، قد انهمك في حديثٍ ضاحكٍ مع فتاةٍ تقاربه في السن، تُظلل عينيها خُصلٌ مصبوغةٌ زرقاء، راحت تلوح بكفيها لتشرح له موقفًا ما. كانا يقفان في مدخل بنايةٍ فخمة المعمار، عندما التفتا فجأة بهلعٍ، بعد أن سمعا صوت هرج قادم من مدخل البناية، وما يدريان حتى مرّق بينهما حاتمٌ مندفعًا، تشيّعهُ لعنات وسباب المارين. تلفت حاتم وهو يلهث بعد أن دفع كل من قابله، لبث يرقب بتوتر الشارع العريض ذي الحارتين المزدحمتين بالسيارات. نزل الرصيف وقد تملكه جزعٌ شديدٌ لم يدرِ مدى صدقه. استند إلى الحقيبة الخلفية

لسيارةٍ واقفةٍ، قبل أن ينفجر زجاجها بغتةً. ارتدّ إلى الوراء واقعًا، وهو يتلفت جَزِعًا (اللعنة! لقد أطلقوا عليّ رصاصًا لتَوِّهِمْ!) ارتفعت صرخات المارة وجثا بعضهم برعبٍ. لمح حاتم أُمًّا تدفع عربةً مُظللةً لطفلٍ رضيعٍ، اندفع إليها بلا ترددٍ ليدفعها وينتزع العربة منها، وبينما كانت الأم تصرخ، اندفع هو بعربة الطفل ليستعين بها على عبور الشارع المزدحم بالسيارات التي ارتفع نفيرها باحتجاجٍ ولكنه لم يبال، بعض السيارات ارتفع صرير عجلاتها وهو يعبر الطريق كالطلقة، بعضهم نجح في التوقف، والآخر فشل ليصطدم بسياراتٍ أخرى، تحوّل الشارع العريض ذو الحارتين إلى فوضى جمّةً، ولكن حاتمًا وصل أخيرًا إلى الضفة الأخرى من الشارع. دفع العربة جانبًا غير مُبالٍ بالصراخ العنيف للطفل، ليركض بكل قوته صوب دراجته البخارية، ليقفز فوقها، ويديرها فورًا منطلقًا بها بأقصى عزمِ مُحرِّكها، وقد أدرك أنّ أوان موته مرهونٌ بمدى سرعة هروبه من مطارديه الغامضين.

ومِن مكانٍ قريبٍ، وبينما كان حاتمٌ يعتلي دراجته البخارية، لم يكن يعلم أنه يظهر في هذه اللحظة على شاشة كاميرا رقميةٍ، راح صاحبها يلتقط له عدة صورٍ متتابعةٍ فائقة القرب والوضوح.

***

وقف الرجل ذي السيجار وراء النافذة مُتطلعاً إلى الشارع المزدحم ذي الاتجاهين، كان يقبض على الهاتف المحمول هاتفاً لمحدثه بلهجةٍ قاسيةٍ صارمةٍ: "هذه الصور تُوَزّع فورًا على كافة الأجهزة، يجب إعلامي بكافة المعلومات عن هذا الولد، وقبل كل ذلك، يجب إحضاره إليّ قبل أن يتسرب ما صوَّره!"

وفي الخلفية، كان رجلٌ بدينٌ عارٍ على الأرض، يتشنج برعداتٍ عشوائيةٍ قويةٍ، وقد اخترقت جسده عدة خوابير من الحديد الصدئ.

***

راحت امرأةٌ في بداية العقد الرابع تهرول فوق مشّايةٍ كهربائيةٍ بهِمَّةٍ، التمعت قطراتٌ من العرق وهي تنحدر ببطءٍ فوق وجنتها، جففت المرأة رشيقة القوام العرق بمنشفةٍ صغيرةٍ سحبتها كانت تطوق عنقها عندما ارتفع فجأةً رنين هاتفها المحمول. التقطته من موضعه بجانب لوحة التحكم أمامها وهي ترد بصوت لاهثٍ نوعًا:

- آلو

- آسف يا مدام سناء لو اتصالي في وقت غير مناسب.

أبطأت من سرعة المشاية وهي تنظر نظرةً خاطفةً إلى التوقيت الذي يقترب من منتصف الليل، قالت بضيق:

- لو أعلم أنك المتصل؛ لم أكن لأرد، أنت غيرت رقمك كعادتك!

- آسف يا أستاذة، الموضوع أني كنت أُعِدُّ موضوعًا صحفيًّا، ولكن تطورت الأمور فجأةً بعد أن التقطت صورًا كادت تضيع حياتي بسببها، إن ظهرت هذه الصور للنور؛ ستكسر الدنيا.

- حاتم؛ أنا في التمرين ولست في الجورنال، ولا وقت لدي لتُرَّهاتك الآن! أما صورك؛ فضعها في.. يديك!

- أنا أتفهم أنني في آخر تعامل بيننا كنت نذلاً معكِ. لكن صدقيني؛ هذه المرة الموضوع خطيرٌ فعلاً.

- أنت لا تفهم ولا تشعر بأي شيء، ولن تعبأ قط بالمشاكل التي أوقعتني بها بعد آخر تعاملٍ صحفيٍّ بيننا!

بحِدّةٍ صاح حاتم:

- يا أستاذة سناء أنا لا أمازحك الآن! أقول لكِ بسبب هذه الصور حياتي في خطر!

صاحت بمزيج من الاستهانة والازدراء: "وكأنّ أحدًا سيتأثر!." وأغلقت الخطَ وهي لا زالت تهرول، وإن كان وجهها قد تخضّبَ احمرارًا انفعالاً.

* * *

٢

يومٌ جديدٌ، أشرق صباحُه على شرفة سناء أبو زيد، لتغمر أشعة الشمس الصافية الشرفة الفسيحة، وتنعكس أشعتها الصافية في هذا الوقت المبكر من الصباح على خصلات شعرها المنسدلة البُنِّيَّة، وهي ترشف رشفةً من قهوتها التي تفوح منها رائحة الحَبَّهان. اعتدلت سناء فوق مقعدها المجدول من الخوص وهي تعيد قراءة العنوان الظاهر على شاشة حاسوبها اللوحي:

" العثور على جثة مدير مستشفى استثماري شهير ميتًا وقد تقطعت أجزاؤه ببشاعة."

وضعت قدح القهوة التركية فوق المائدة وقد انتابها التوتر. عادت تتفحص المواقع الإخبارية- كما هي عادتها الصباحية- وقد قصرت بحثها على (سميح الشريف) الضحية. وجدت موقعًا آخر يضع العنوان التالي على صدر صفحته:

"إطلاق نار وفوضى أسفل مسرح جريمة مقتل الشريف"

شردت سناء لثوانٍ، قبل أن تنتفض بغتةً إثر رنين هاتفها المحمول،

حملقت في الاسم الظاهر على الشاشة بغرابةٍ؛ إذ كان الشخص نفسه الذي تفكر به الآن.

كان حاتم.

***

ساد الصخب في قاعة تحرير الجريدة التي تحمل سناء لقب نائب رئيس تحريرها، كانت مُنْكَبّةً على بعض التقارير تراجعها عندما ناداها أحدٌ مِن السكرتارية: "أستاذة سناء؛ رئيس التحرير يطلبك حالاً في مكتبه".

رفعت رأسها عن التقارير بتساؤلٍ.

وفي آخر الصالة، حيث غرفةٌ يحتل الزجاجُ المُمَوّهُ حائطين من حوائطها الأربعة، دلفت سناء إلى غرفة رئيس التحرير وقد سبقها أصوات كعب حذائها العالي. من النظرة الأولى خمّنت جوّ التوتر المخيِّم على الغرفة، تقدمت إلى رئيس التحرير الذي ترك مكتبه ليجلس فوق أريكةٍ جلديةٍ تتسع فَرْديْن، فيما أمامه رجلان متأنقان ببدلٍ سوداء، مفتولا العضلات بشكلٍ لافتٍ، بدا من جلستهم المتخشبة فوق الأريكة الطويلة أن ثمة خطبًا ما.

بادرت بالسؤال: "سيادتك طلبتني؟"

اندفع رئيس التحرير:

- حاتم فهمي، الصحفي المتخصص في المواد الفضائحية، هل اتصل بك مؤخرًا؟

فاجأها السؤال، فنظرت إلى الغريبين بتوجسٍ وهي تجيب: "لماذا؟!"

رئيس التحرير:

- تخلصي من تشكُّككِ الصحفي المُلازم لكِ ولو لدقيقةٍ واحدةٍ، أريد إجابتك حالاً لأجل وقت الباشوات، فالموضوع يمسُّ جهاتٍ عليا.

- وكيف ذاك؟!

- أنت تعلمين حاتمًا وركضه وراء الفضائح، يظهر أن الموضوع أفلت من سيطرته هذه المرة، تقريبًا حماسته ورّطَتْه في جريمةٍ. ولا تسألي عن تفاصيل أكثر لأنني شخصيًا لا أعلم المزيد.

ثم هتف بها بصبرٍ: "سناء؛ أنتِ النائب الخاص بي، بشكل مباشر أسألك؛ هل أعطاكِ حاتم موادًّ لتنشريها له؟"

شعرت بالمفاجأة، حاولت بالسيطرة على ارتباكها وهي تجيب بسرعة: "حضرتك تعلم جيدًا أنه يعمل بالمكافأة، ومنذ آخر موضوع قدمه لنا مُذ شهرين، لم أسمع عنه قط."

ونظرت للرجلين المتأنقين، فرأتهما يرمقان بعضهما بنظرةٍ غامضةٍ.

* * *

تقدم الساعي بزيّه المميز حاملاً صينيةً تراصّت فوقها أكواب الشاي وفناجين القهوة، ليندسّ بين المكاتب المتراصة، وبمهارةٍ شرع يُقدم الطلبات للصحفيين وهو يقول بلهجة من يُدلي بشيءٍ خطير: "يظهر أ. حاتم فهمي ارتكب بلوةً كبيرةً فعلاً." وانتقل إلى مكتبٍ مجاورٍ ليضع طلبًا آخر وهو يتمعن في الرؤوس التي ارتفعت إليه ليطمئن إلى أنه جذب انتباههم؛ أردف: "ثمة اثنان يبدوان ذَوَيْ شأنٍ وسطوةٍ، جالسان الآن في مكتب رئيس التحرير، الذي ترك مكتبه الفخم وتواضع ليجلس على أريكة الزوار. تخيلوا؟!"

عبثت صحفيةٌ بقلمٍ في يدها وهي تسأله: "ماذا ترومُ؟ ماذا كانوا يقولون؟"، التفتَ الساعي إليها وهو يُقدم كوب الليمون المثلج الذي طلبته: "أنا عارف! لقد سمعتهم وأنا أقدم لهم الطلبات وهما يسألونه عن أستاذ حاتم، وهو لا يجيب سوى بإجابةٍ واحدةٍ يُكررها؛ لا شأن لي.. لا شأن لي، وبعد أن انتبهوا لوجودي؛ صمتوا!"

فضّ بكري (الصحافي) لفة شطيرة الفول وهو يقول: "مؤكدٌ أن هذا الداهية انزلقت قدمه بشيءٍ ما وهو يركض وراء فضيحةٍ جديدةٍ من فضائحه المخزية."

كانت سكرتيرةٌ شابةٌ قد دخلت إليهم وراحت توزع بعض الأوراق، التقطت أُذناها جانبًا من الحديث، هتفت من فورها: "أعوذ بالله

منه رجل! إنه لا يُراعي سترًا ولا خصوصيةً!"
نزعت امرأةٌ أربعينية العمر عُوَيْناتها وهي تلتفت إلى رجلٍ يجاور مكتبُه مكتبَها وهي تقول: "كم أتمنى أن يكون فعلاً وقعً في شر أعماله.. كم ابتزني هذا البغيض؟ كان يساومني إمّا أن يضع اسمه فوق تحقيقاتي المتميزة، أو يُبلِّغ طليقي بمكالماتي معك، التي لا أعلم حتى اللحظة كيف سجلها؟!" زفر مُحدّثها الذي لم يكن سوى زوجها الأخير، قال بحنقٍ: "ذلك الدنيء كان يهددك لكي تضيع بذلك حضانتك لأطفالك، كان يفعل ذلك رغم علمه بنيتنا المعلنة في الزواج!" تدخّل رجلٌ أشيبُ في الحوار: "وأنا أضاع عليّ ترقيةً كبيرةً منذ أربع سنوات، فقط كي يكون هو مندوب الجريدة في وزارة الداخلية، هل تعلمون كيف؟ لقد ادّعى أنني تابع للجماعة الإسلامية، وعزّز أقواله بأوراقٍ اتّضح بعدها أنه مجرد تشابهُ أسماءٍ!"
عبرت بينهم في هذه اللحظة سناء، فالتزم جميعهم الصمت، ذرعت نائبة رئيس التحرير الصالة بخطواتٍ سريعةٍ واسعةٍ، وقد بدا وجهها مهمومًا، جلست على مكتبها في زاوية القاعة. تناولت هاتفها المحمول وجعلت تبحث في الأسماء حتى وصلت لاسم حاتم فهمي.

نظرت إليه بترددٍ وأصبعها يوشك أن يضغط زر الاتصال به.

* * *

ارتفعت طرقعاتٌ لكعبٍ نسائيٍّ يَتَخْتّرُ فوق الأرضية الرخامية لصالة التحرير، رفع الصحافيون عيونهم بدهشةٍ صوب مصدر الصوت ليُبَاغَتوا بصاحبته ذات النقاب الأسود، التي انسلّت من بين مكاتبهم بسهولةِ من يعرف المكان.

كانت سناء مستغرقةً في شرودها فيما عيناها معلقتان بشاشة هاتفها المحمول؛ عندما وقفت بمواجهتها ذات النقاب الأسود. رفعت رأسها إليها لحظةً تتأمل هذه المرأة التي ترفل في جلبابها الأسود الفضفاض، قبل أن تقول: "أتبحثين عن أحدٍ يا حاجّة؟!" جلست المرأة المنقبة بأريحيّةٍ إلى مقعدٍ بمواجهتها، تلفّتَتْ بسرعةٍ، انعقد حاجبا سناء بتساؤلٍ، مالت المرأة المنقبة نحو المكتب وهي تكشف عن وجهها لثانيةٍ قبل أن تعيد غطاء وجهها بسرعةٍ، انتفضت سناء هاتفة: "حاتم؟! ما هذا الذي ترتديه؟!" ارتبك حاتم وهو يُعيد التلفت في الأنحاء، قال هامسًا وهو يضغط على كلماته: "اخفتي صوتك! هلى تريدين كشف أمري؟!"

قالت وهي لا زالت تحت تأثير المفاجأة: "كيف سمح لك الأمن أن تدخل بنقابك هذا؟". وضع قبضته فوق سطح المكتب وفتحها

بسرعةٍ لتجد عدة ورقاتٍ ماليةٍ فئة الخمسين جنيهًا، أعاد قبض كفّه بحركةٍ ذات مغزى بما يعني رشوتهم. تراجعت بظهرها وهي ترمقه في تنكره بالزي النسائي، تتأمل عينيه اللتيْن خطهما الكحل، هتفت ممتعضة:

- هل هناك من يفعل ما تفعله؟!

- لم يتوفر لدي وقتٌ لأجد وسيلةً أفضل، أشك أنني مُراقب، كما أنكِ لا تجيبين على مكالماتي، فماذا أفعل؟!

وهي تلوح بهاتفها المحمول: "رغم أني أشك بذلك فعلاً؛ لكن يظهر أنك ابن حلال، فقد كدت أتصل بك."

ربّت على صدره: "الله يكرم أصلك، نأتي للمفيد؛ البارحة كنت أصور جيهان كامل- النجمة التي اعتزلت أكثر من مرة- وهي في أحضان عشيقها بإحدى الشقق المؤجرة، أنتِ تعلمين أن زوجها قياديٌّ سلفيٌّ شهيرٌ، وكم من محطاتٍ تلفزيونيةٍ تتوق لأن تتلقف فضيحةً مثل هذه لتشمت به وبتياره بالأساس. بدون قصدٍ مالت الكاميرا للأسفل سنتيمترًا واحدًا، لتصور ما يجري في الدور الذي أسفل الفنانة، لأفاجأ بجريمة تعذيبٍ لم أر مثلها قبلاً."

نظرت إليه بمزيج من الاستغراب والفضول فيما استطرد هو:

"هذا الصباح كان خبر مقتل هذا الرجل يحتل كافة عناوين

الصحف، هل تعلمين من هو؟ إنه سميح الشريف، مدير أكبر مستشفى استثماري في مصر!"

اعتدلت بغير تصديق: "يخرب بيت عقلك! هل صورت حقًا مقتله؟!"، أجاب: "ليس هذا فحسب، بل وبالصوت كذلك. لعلك قرأتِ كذلك في متن الأخبار عن إطلاق نار وفوضى في الشارع أسفل البناية المشئومة، تلك الرصاصات كانت تطلق على حَتّومة، لعلهم كشفوا أمري، برغم مسارعتي للفرار قبل أن أسجل موت سميح، إذ خشيت أن يلمحوني."

تطلعت إليه بعمق وكأنما تحاول سبر أغواره، ثم بعدم ارتياح قالت: "مُذ عرفتك وأنت كذّابٌ أَشِرٌ، تبيع أهلك لأجل مصلحتك"، ثم شبكت أصابعها: "ولكن هذه المرة لعلني أفكر في تصديقك. أنا كنت لدى رئيس التحرير قبل دقائق، كان لديه ضيفان طَلْعَتُهُم غير مطمئنة، كانوا يسألونني عنك!"

توتر حاتم في زيه النسائي: "أتعنين أنهما ما زالا لدى رئيس التحرير؟! إذن كانوا يراقبون هاتفي، ومنه وصلوا إليكِ."، ثم زفر متسائلاً: "بهذه السرعة؟!"

سناء منفعلةً: "برغم كل ذلك، بعد التعامل الأخير؛ والمصيبة التي كِدْت توردني فيها، مستحيلٌ أن أعاود الثقة بك!"

حبس حاتم أنفاسه مُؤْثِرًا السكوت، هو يعلم سناء أبو زيد، ويدرك جيدًا عبث النقاش معها متى انفعلت، لزم الصمت برهةً قبل أن يقول: "إذن، أترين أن أهرب الآن، ونستكمل حوارنا لاحقًا؟." هتفت به: "إن كنت تخشى ضيفيْ رئيس التحرير، فمن تظنه يتعرف عليك في زيك هذا؟!" وأعقب قولها دخولٌ عفويٌّ لإحدى السكرتيرات، أعطت ظهرها لهما ومضت تبحث في دولاب تخزينٍ للمستندات، فتحت الدرج الأوسط وهي تميل إلى الأمام في وقفتها. حدق حاتم فيما كشفه انحسار تنورتها القصيرة التي تصل لركبتيها.

تنحنحت سناء غاضبةً من مرأى عينيْ حاتم اللتين كادتا تخرجان من النقاب، صاحت بجفاءٍ: "هل وجدتِ ما تبحثين عنه يا سلوى؟!." التفتت إليها بارتباكٍ وهي تُلوِّح بملفٍ داخل حافظةٍ بلاستيكيةٍ: "نعم يا أ. سناء." وغادرتهما بخطواتٍ مسرعةٍ تُشيعها دقات كعبها العالي.

هتفت سناء بغيظٍ: "هل هناك منقبة تنظر بهذا الشكل المسعور؟!"، تجاهل سؤالها وهو يقول بلهجةٍ هادئةٍ: "أنا لم أنكر قط أنني أناني، ولأجل ذلك بالذات عليكِ أن تثقي أنني لن أتسبب لكِ بأي ضرر، ليس لأجل معزتك لا سمح الله. ولكن لأن سلامة حياتي نفسها

تتوقف على سلامتك أنتِ."

رمقته بعدم ارتياحٍ، قبل أن تهبط بعينيها إلى ساعة مكتبها التي تشير إلى الحادية عشرة وثلاثة وعشرون دقيقة صباحًا.

* * *

تقدم رجلٌ عجوزٌ بسيط الثياب، بخطواتٍ واهنةٍ، في أواخر العقد السادس، يعبر الشارع، وفي يسراه صورةٌ فوتوغرافيةٌ ما. اعتلى الرصيف المرتفع نسبيًّا للجريدة الشهيرة، رفع رأسه لتأمل المبنى الفخم فأغشت بصره شمس الظهيرة. جفل وهو يغلق عينيه بقوةٍ. جعل يتأمل الداخلين والخارجين من المبنى. وبترددٍ، تقدم ليعبر البوابة.

* * *

رفعت سناء بصرها الشارد عن الساعة المكتبية، سألت:

- ولماذا أنا بالذات تلجأ إليّه؟

- تعلمين أنني بحكم نوعية تحقيقاتي؛ تعاملت مع شتى ألوان الطيف في وسطنا الصحفي، وبصراحة أنتِ أكثرُ شخصٍ محترمٍ ذي مبدأ تعاملت معه.

- وأين الصور؟

- طبعًا لن أحملها معي، ولكنها ستكون في حوزتك إن ظفرت بوعدك بنشرها إن تهددت حياتي.

- هذا ليس سببًا كافيًا لي لنشرها.
- إن رأيتِ الصور ستدركين أنها ستفجر أكبر قضية رأيٍ عامٍّ في مصر.
بدا على سناء التفكير، فيما استدرك حاتم:
- طبعًا في جميع الأحوال سيكون الموضوع مُذيّلاً باسمي، لكن الميزة التي ستعود عليك أنّ هذا السَبْق منشورٌ في جريدتك.
- أنا التي تقرر بعد أن أرى الصور، إن كانت تستحق كل هذا اللغط؛ أم ستكون شبهك!
قام حاتم في نقابه النسائي الأسود الفضفاض، وهو يقول بصوتٍ خافتٍ: "أعلم أن ما رأيته مني ليس جيدًا للأسف، لأجل ذلك أتفهم عدوانيتك هذه."
وابتعد عنها بخطواتٍ نسائيةٍ مُتمهلة، فيما تابعته سناء وقد استغرقت في التفكير.

***

لاحظ رجل أمن الجريدة تردد الرجل العجوز وهو يخطو نحو بوابة المبنى، فتقدم إليه بهِمّةٍ، استوقفه قائلاً: "إلى أين أنت ذاهب يا حاج؟!" أجاب الرجل العجوز: "أنا صابر عبد ربه يا بني، أريد الصعود لأستاذة سناء." استفهم رجل الأمن: "سناء من؟ كثيراتٌ يحْملنَ هذه الإسم." بدا على صابر التعب والإرهاق وهو يتذكر:

"لا تسعفني ذاكرتي يا بني، ما أعلمه جيدًا أنّ لها تحقيقاتٍ صحفيةً في المواضيع الإنسانية."

ظهر بكري-الصحافي- خلفهم في هذه اللحظة وهي يُخرج علبة سجائره، استند إلى عامودٍ رخاميٍّ وهو يُشعل سيجارته، برغمه تابع حوارهما، ورجل الأمن يجذب الرجل العجوز بغلظةٍ صائحًا: "قلت لك لا تستطيع الصعود يا حاج!" هتف الرجل العجوز مُحتجًا: "قلت لك أريد مقابلة أ. سناء!"

- لماذا؟

- أخبرتك أنه موضوعٌ إنسانيٌّ.

- الصعود ليس بهذه السهولة. إن كنت تريد مقابلتها؛ فيجب أن يكون اسمك مدرجًا لدينا- بعد موافقتها- قبل الصعود.

- وكيف ستوافق يا بني على مقابلتي وهي لم ترني بعد؟!

- هذه هي الأوامر، اعذرني.

طفرت الدموع من عيني صابر وقد تغضّنت ملامحه وهو يهمُّ بالبكاء: "يا بني لدي حالةٌ صعبةٌ جدًا، ليس لديك فكرة كم تعبت حتى وصلت إليها هنا."

ألقى بكري- الذي كان يتابعهما- السيجارة قبل أن يقترب منهما، سأل رجل الأمن:

- ما قصة هذا الرجل؟

- يقول أنه يريد أستاذة سناء، أظنه يقصد نائب رئيس التحرير أ. سناء أبو زيد، وحضرتك تعلم أن ذلك غير مسموحٍ إن كان بغير ميعادٍ.

جذب بكري الرجل العجوز برفقٍ، ليبتعد نوعًا ما عن رجل الأمن، تأمل ملابسه غير المكوية، سأله: "خيرًا يا حاج، أنا صحفي أعمل مع الأستاذة، وممكن أساعدك."

بلهجة ملؤها الأمل، رفع صابر الصورة التي في يُسراه: "هذه يا أستاذ ابنة نجلي الوحيد، كانت عندي أمانةً ريثما يعود هو وزوجه من غربتهما، فقدتها منذ أربعة أيام، لم أترك قسم شرطة أو مستشفى إلا وذهبت إليه وسألت، ولم أصل لأيّة نتيجة."

التقط بكري الصورة، كانت لصبيةٍ قمحيّة البشرة تبتسم ابتسامةً حالمةً، قَدّرَ عمرها بثمانية أعوام. قال: "ربنا يوصّلك إليها، ولكن لا تؤاخذني، ماذا تظن أستاذة سناء أبو زيد تقدم لك؟!" قال صابر بمزيجٍ من العصبية والرجاء: "قلت لكم إنها مشهورة بتحقيقاتها ذات المواضيع الإنسانية، مؤكّدٌ أن لديها ما تقدمه"، ثم أمسك كتف بكري هاتفًا بضراعةٍ: "ليس لديك فكرة ماذا سيفعل ولدي وزوجته إن علما باختفاء نجلتهم، أنا لم أخبرهم بهذه الفاجعة حتى هذه اللحظة."

نظر بكري إليه بتمعنٍ وقد بدا عليه التفكير، ثم هتف به بحزمٍ وهو يخرج من جيب سرواله بطاقةً ناوله إليه: "دَعْك من أستاذةً سناء وكل ذلك، لن تجد من يساعدك حقًا سوى هذا الرجل، إنه صحفيٌّ واعدٌ يُدعى حاتم فهمي، مشهورٌ بمروءته وقلبه المرهف، له علاقات مع طوب الأرض، هو الوحيد الذي سيساعدك في العثور على حفيدتك." وأعقب قوله بأن كتب على ظهر البطاقة عنوان سكن حاتم. تناول صابر البطاقة، قرأ اسم حاتم عليها وقد أشرقت ملامحه بالأمل. رفع وجهه لبكري بامتنانٍ، فرَبّت الأخير على كتفه وهو يقول: "رقم تليفونه على البطاقة، والعنوان في الخلف، إن شاء الله تعثر على حفيدتك."

هَمَّ صابر بالمُضي بهِمّةٍ ولكن بكري استوقفه: "رويدك يا عم الحاج، أهم شيءٍ أول ما تقابله تقول له؛ بكري صاحبك بيسلم عليك." أومأ صابر برأسه بحماسةٍ، ولم ينتبه وهو يبتعد عنه إلى ابتسامةٍ ماجنةٍ خبيثةٍ ارتسمت على ملامح بكري.

وفيما وقف صابر على ناصية الشارع ينتظر الحافلة الحكومية، لم ينتبه لحاتم في زيّه النسائي الأسود، وهو يمرّ بجانبه في خطوات سريعة، قبل أن تتوقف له سيارة أجرة، ركبها وانطلقت من فورها.

***

٣

بدا الجَوُّ كالضباب، بسبب الدخان المنتشر أسفل الثريا الفخمة المعلقة بسقف حجرة المسئول الأمني الكبير، الذي كان يسترخي في هذه اللحظة فوق مقعده الجلدي الوثير، وهو يضع سيجاره الكوبي فوق حافةِ مطفأةِ سجائرَ رخاميةٍ عتيقة الطراز، فيما يقول بتؤدةٍ: "مفهوم.. مفهوم.. يا باشا، على قدر ما أقدر جعلت موظفي الجهاز يتفرغون لهذا الموضوع." وعدل من وضع سمّاعة البلوتوث داخل أذنه فيما يرمق شاشةَ هاتفه المحمول ذي الطراز الأحدث على الإطلاق، كانت هوية المُتصل على شاشته تحمل عبارة (غير معروف)، لبث يستمع لمحدثه الغاضب بانصياعٍ قبل أن يعتدل هاتفًا: "نعم، قد وصلني فعلاً قبل قليل ملفٌ يحوي صورهُ وبياناته كلها." وأثناء ذلك سحب المسئول الأمني من الملف صورةً كبيرةً لحاتم وهو يعتلي دراجته النارية قبيل هروبه وقت مقتل سميح الشريف. تناول سيجاره ليسحب نفسًا عميقًا وهو يستمع إلى مُحدِّثه بانتباهٍ، قال اهتمامٍ: "سنعمل له قضية

تجسسٍ تجعل الشرطة تنضم لنا في البحث عنه." وقلّب في بعض الأوراق أمامه: "التحريات المبدئية أمامي تقول أنه صحفيٌّ قذرٌ، متخصصٌ في التنقيب عن الفضائح، مثل ذاك أعداؤه كُثر، لن يهتم أحدٌ بمصيره مهما كان."، ثم كتم سعالاً كاد يخرج منه، قبل أن يردف: "لقد كان يتعاون مع أمن الدولة على فكرة، ما أكثر ما شهَّر بأعداء نظام مبارك بالتنسيق معهم!"

مال بظهره إلى الوراء وهو يسحب نفسًا آخر من سيجاره بعَظَمَةٍ، قال: "تمام سعادتك، في جميع الأحوال سيؤول إلينا، وإن أمسكت به الشرطة قبلنا، ستسلمه لنا بطبيعة الحال."

وبعد أنْ أغلق مُحدِّثه الخط، تناول المسئول الأمني الكبير ملف حاتم فهمي، وعلى شفتيه ابتسامةٌ شغوفةٌ... ووحشيةٌ.

***

وقف حاتم أمام واجهةٍ زجاجيةٍ لمتجرٍ صغيرٍ يبيع الهواتف المحمولة. فيما يتأمل الطرازات قفزت إلى ذهنه عبارة سناء في لقائهما الأخير (أنا كنت لدى رئيس التحرير قبل دقائق، كان لديه ضيفان طلعتهم غير مطمئنة، كانوا يسألونني عنك!) ارتعد حاتم برغمه، وتساءل في نفسه مُتهكمًا (يعني أولاد الهِرمة لم ينجحوا فقط في العثور عليّ؛ بل ويتنصّتون كذلك؟!) وأخرج هاتفه

المحمول الأنيق من جيب سرواله لينظر إليه يشيءٍ من الحزن (إلى أن أعرف من هؤلاء؛ لا يجدر بي أن أحتفظ بك أكثر من ذلك). وألقاه بلا ترددٍ في صندوق قمامةٍ شبكيٍّ معلقٍ على أحد أعمدة الإنارة، قبل أن يزفر بقوةٍ ويدخل إلى متجر الهواتف. تلقاه البائع: "تحت أمرك يا زعيم." مسح حاتم المكان ببصره: "أريد خمسة خطوط بأعقد أرقام لديك، ووزّعهم على الشبكات الثلاثة." أعطاه البائع ظهره ليُلبي طلبه كاتمًا استغرابه في نفسه.

وفيما يعطيه ما طلب، استمهله حاتم وهو يميل إلى الأمام كأنما يهمس له: "هذا ليس كل شيءٍ، أريد معهم كذلك أرخص خمسة هواتفٍ خلويةٍ في المحل!"

***

في فيلته الصغيرة الكائنة بالتجمع الخامس، وفي غرفة النوم الرئيسية في الطابق العلوي، كان حاتم يقف أمام صوان ملابسه المفتوح على مصراعيه، يتناول كل ما تصل إليه يداه ليُلْقِه خلفه على فراشه. كان في حالةٍ عاتيةٍ من العُجلة والتوتر، إذ وعى أنّ عليه أن يترك هذا المكان بأسرع ما يمكن. وفيما يحزم حقيبته، كان يُحدث نفسه ساخرًا (يعني أنت لم تجد إلا هذه المنطقة الهادئة كي تسكن فيها؟! بهذا الشكل إن تم قتلك الآن فلن يشعر بك أحدٌ

قط)! سمع في هذه اللحظة صوت سيارةٍ قادمةٍ، فتجمّد في مكانه عابسًا، قبل أن يتسلل على أصابعه نحو النافذة، وبحرصٍ أزاح قدرًا يسيرًا من الستائر السميكة. لم يجد ما يُريب؛ فزفر بقوةٍ، قبل أن يعود لحقيبته.

***

تقدم صابر بخطواتٍ مترددةٍ نحو فيلا صغيرة، قارن الرقم على بوابتها بالرقم المدون فوق بطاقةٍ في يده، بدا عليه الأمل بعد أن وجدهما متطابقيْن، رفع رأسه إلى أعلى مُتأملاً الفيلا فيما يعبر البوابة الحديدية المنفرجة جزئيًا. وما درى إلا وهو يصطدم بأحدهم بقوةٍ.

أمسك به حاتم قبل أن يقع، "أعتذر لك يا حاج، فقد كنت أريد المغادرة بسرعة" تأسف حاتم. بادره الرجل العجوز: "بل الخطأ خطئي يا بني، فالنظر لم يعد كما كان."، ثم استدرك وهو يرفع البطاقة يقرأ منها: "من فضلك، أليست هذه فيلا حاتم فهمي؟" حدّق حاتم به بدهشةٍ، تناول منه البطاقة ليطالعها: "الله! من أين لك هذه؟!"، أجاب صابر بصوتٍ يَنُمّ عن رئتين سقيمتين: "واحد زميله ابن حلال اسمه بكري أعطانيها."

ضغط حاتم على أسنانه قائلاً بخفوتٍ: "أنت وقعت مع بكري ابن

الكلــ"، وقطع عبارته ليتمعن فيه بتوجّسٍ، سأله: "من أمامك هو حاتم فهمي، خيرًا يا حاج؟." أخرج صابر صورةً فوتوغرافيةً وهو يقول: "كي لا أطيل عليك، وحضرتك أخبرتني لتوك أنك على عَجَلة، هذه التي في الصورة هي حفيدتي فاطمة، الابنة الوحيدة لنجلي الوحيد، تركها لديّ أمانة، وسافر مع امرأته ليعملا في الخارج." وتهدّج صوته بغتةً باكيًا: "ولكنها ضاعت مني..." صاح به حاتم ساخطًا: "صه! صه! على رسلك، هل هذا وقته؟! ألم أخبرك أني مستعجلٌ؟!" حاول صابر مواصلة ما يُريد قوله ولكن الكلمات تحشرجت داخل حلقه الذي جفّ انفعالاً، نظر إليه حاتم ناقمًا برهةً ثم هتف به: "حسنًا، تمالك نفسك يا حاج، وأخبرني؛ ماذا تتوقع مني أن أفعل؟" ناول صابر الصورة لحاتم: "هذه صورتها يا بني، تفقّد معارفك وعلاقتك، اعرض عليهم صورتها، لعلهم يبلغوك أخبارًا عنها." خطف حاتم الصورة من يده، ألقى عليها نظرةً خاطفةً، ثم أودعها جيبه بحركةٍ سريعةٍ، ومضى لحال سبيله. استوقفه عم صابر: "رويدك يا بني.."، وناوله ورقةً: "هذا عنواني ورقم تليفوني.. يا رب يا بني أسمع منك أخبارًا حلوةً قريبًا"، وقبل أن يُنهي عبارته؛ تهدج صوته ثانيةً ليُعاود البكاء.

تناول حاتم الورقة، والتقط حقيبته، ليضعها فوق دراجته النارية. وفي

الخلف أعطاه صابر ظهره، رافعًا ذراعيه يتضرع إلى الله داعيًا برجاءٍ.
اعتلى حاتم دراجته، ولبث يرقب صابر الذي مضى في خطواته العليلة حتى اختفى عن ناظريه، وهنا أخرج الورقة التي بها عنوان الرجل العجوز، ومزقها بسرعةٍ، وقد كست وجهه أقصى تعابير التأفف.

***

مساءً، بمبنى جريدة "اللحظة"، حيث تعمل سناء أبو زيد، كانت نائب رئيس التحرير تحدق إلى شاشة الحاسوب بمزيجٍ من الذهول والانزعاج، وللمرة الرابعة قرأت المانشيت المنشور لإحدى الصحف الصادرة باكرًا؛ عبر موقعها الالكتروني:

(هروب صحفي الفضائح الشهير من الشرطة بعد تورطه في قضية تجسس)

وتراجعت بمقعدها إلى الوراء وهي تتناول سماعة الهاتف لتطلب رقمًا ما، صاحت بانفعالٍ: "من فضلك تأكد إن كان أحضر صورة المحضر بعد أم لا، عدد الغد معطلٌ فقط لأجل هذا المحضر."، ارتفع حاجباها بدهشةٍ وهي تستمع لمُحدّثها: "رأيته يصعد إليّ الآن؟!"، وأدارت وجهها إلى مدخل صالة التحرير لترى صحفيًّا شابًّا يهرول باتجاهها، أغلقت الخط، تناولت منه الملف بلهفةٍ

ظاهرةٍ، لوحت إليه أن يمضي فيما عيناها تجولان في أوراق المحضر، بدت كمن يبحث عن سطر ما. بغتةً تراجعت وقد ظهر عليها الانزعاج الشديد، عادت تقرأ السطر الذي أثار استغرابها (**وقد أقفل المحضر في تاريخه الساعة ١١,١٥ص**).

شردت وقد برق في ذهنها مرأى ساعة مكتبها صباح اليوم، أثناء جلستها مع حاتم، وقد أشارت إلى الحادية عشرة وخمسٍ وعشرين دقيقةً صباحًا.

وحين أغلقت الملف، علت ملامحها تعابيرُ تشي بالخطورة، وهي تقول في نفسها (يظهر أن الأمر خطيرٌ فعلاً. الملفقين ولاد الكلب!! يدعون أنهم قبضوا عليه ثم هرب منهم أثناء ترحيله! أنّى ذلك وقد كان جالسًا معي وقتها)!

***

٤

قبع حاتم بتوتُّرٍ يرقب اقتراب اكتمال رفع الصور عبر شاشة الحاسوب في أحد مقاهي الإنترنت، وهو لا يكفُّ عن التلفت من حينٍ لآخر.

بحذرٍ، وضع الهاتف المحمول على أذنه، هامسًا: "ها قد نفذت تعليماتك حرفيًّا يا عم كريستيان، قد اكتمل رفع الصور على الموقع المُأمَّن الثالث، وذلك عبر دخول للنت من مكانٍ عامٍ، ماذا أفعل الآن؟"

استمع حاتم لمُحدّثه بتركيزٍ قبل أن يرتفع حاجباه دهشة: "إيه! ما دام اكتمل الرفع أقوم أجري حالاً؟ لماذا؟!"، وما كاد ينتهي من تساؤله، حتى تناهى إلى مسامعه صرير فرملةٍ عنيفةٍ لسيارةٍ، فامتقع وجهه وهي يُنهي المكالمة. قام وهو يسحب أداة تخزين البيانات من الحاسوب بعجلةٍ، ويضع ورقةً نقديةً أسفل لوحة المفاتيح، ليخرج مُغادرًا الكافيه بهرولةٍ واضطرابٍ واضحيْن.

كان مقهى الإنترنت في أحد المولات الأفقية والتي لا تزيد عن

طابقين، وصل حاتم إلى منتصف درجات الدور الأول عندما لمحه أحدُ الرجال المتأنقين ذوي البدلات السوداء، الذين هبطوا لِتَوِّهِم من السيارة التي أحدثت الصرير الأخير، صاح بصوتٍ أجشٍّ: "هذا هو! من هذا الاتجاه." تدافع نحو أربعة رجال صاعدين الدرج بثباتٍ، حاول حاتم مراوغة أقربهم إليه، ولكن الأربعة تكالبوا عليه، لينهالوا عليه ضربًا وركلاً.

في هذه اللحظة كان شابٌ ملتحٍ، رياضيٌّ يرتدي ملابس عصرية، يصعد الدرج بهمةٍ، عندما فوجئ بمرأى رجال يلكمون ويركلون شابًا في العقد الثالث، فكر في التدخل، ولكن مرأى مسدسٍ كبيرٍ يبرز من بنطال أحد المهاجمين جعله يتريث قليلاً. كان ذلكً حتى لمح أحدهم يمسك رأس ضحيتهم ليضربهُ في حافة الدرج الرخامي بكل قوته، هنا تبخرت لديه كل المحاذير، ووجد نفسه يندفع إليهم هائجًا صارخًا: "هل تدهورت الأمور بالبلد لدرجة المجاهرة بقتل خالد سعيد آخر؟!"، وأعقب قوله برفع أول صفيحةِ قمامةٍ كبيرةٍ صادفها على الجانب، فرفعها بعنفوانٍ وألقاها إليهم.

تفرّق المهاجمون ذوو البدلات السوداء بنسقٍ احترافيٍّ، وما درى الشاب المُلتحي إلا وبوغت بركلةٍ انتزعته من مكانه، شاهدت مجموعةٌ من الشباب ما يجري، فثارت حميّتهم، وتدافعوا

صارخين ليتشاجروا مع ذوي البدلات السوداء. ولم يَدَعْ حاتم هذه الفرصة تفلت، فاستغل انشغال المُهاجمين، وانسل منهم مرعوبًا لا يُصدق أنه قد ينجو بحياته.

أدرك المُهاجمون فقدانهم لحاتم، فأخرج أحدهم سلاحه ليُطلق عدة أعيرةٍ في الهواء، سادت الفوضى في الطابق الأول وجثا الزوار بفزعٍ، فيما تعالت الصرخات من الشارع مع صوت الطلقات المدوية، تزامن ذلك مع هرولة المُهاجِمين لينزلوا الدرج بعصبيةٍ باحثين عن طريدتهم.

مع دوي الرصاصات، كان حاتم يقفز بتخبُّطٍ مُتوقِّعًا مع كل دويّ رصاصةٍ أن تكون هذه في جسده. تلفَّت إلى الخلف فأدرك أنه جاوز المول التجاري بعدة عشراتٍ من الأمتار، ولأن معظم المارين كانوا جاثين على الأرض خوفًا من الرصاص، فقد ظهر هو واضحًا للمهاجمين. استبدّ به الجزع بعد أن أدرك أنهم لمحوه ويكدّون الركض باتجاهه، (بسرعتهم هذه سيبلغونني في ثوانٍ) قال في نفسه وهو لا يدري أين الملاذ. لمح على الناصية مَقْدَمَ كهلٍ فوق كرسيٍّ مدولبٍ تدفعه امرأةٌ، اندفع إليها من فوره، ودفعها بغلظةٍ ليختطف الكرسي المدولب منها، صرخت المرأة مفزوعةً فيما تجاهلها حاتم وهو يدور بكرسي الكهل القعيد ليدفعه بكل

قوته باتجاه مُهاجميه، الذين ارتبكوا مع اصطدام الكهل بهم ووقوعه وسطهم، وسط صراخٍ واضطرابٍ في الشارع مع مرأى مسدساتهم المُشهَرة.

استغل حاتم الهرج ليندفع ويعبر الشارع، لمح شاحنةً كبيرةً كُتِبَ على جانبها (الجمعية الخيرية لنقل الموتى)، كانت تهدئ من سرعتها نسبيًا في هذه اللحظة، توطئةً لمطبٍّ صناعيٍّ على بُعد أمتار. بلا ترددٍ انطلق إليها حاتم راكضًا، ليلمح بابها الخلفي المزدوج غير منضبط الإغلاق، ركض بمزيدٍ من العزم، ليقفز قفزةً متهورةً إلى بابها الخلفي، ويتأرجح متشبثًا به.

لمح المهاجمون قفزةَ طريدتهم، فأشاروا إلى سيارةٍ سوداء، كملابسهم، رباعية الدفع، هرعت إليهم لتتوقف بصريرٍ عالٍ، ركبها المطارِدون بعجلةٍ ليُطاردوا حاتمًا.

انطلقت سيارتهم بصريرٍ مدوٍّ، ووراءها انطلقت سيارةٌ سوداءُ شبيهةٌ.

وفي شاحنة نقل الموتى، في الخلف، كان حاتم يتفقد صناديق نقل الجثث وقد اكتواه الهلع، انخفض ليجثو على ركبتيه مع أول رصاصةٍ شعر بها تمرُّ جانبه، نظر إلى الصناديق الثقيلة مفكرًا للحظة قبل أن يندفع بهِمةٍ وقد اتخذ قراره. نظر نظرةً خاطفةً إلى سيارة الدفع الرباعي للمهاجمين، والتي تقترب من شاحنته باطّراد، وبلا تردد اندفع نحو

أول صناديق الموتى، ودفعها بكل قوته نحو سيارة مُطارديه.
تفرقت السيارتان وقد بوغت من فيها، وقبل أن يتمالكوا أمرهم، أسقط حاتم الصندوق الثالث والرابع.
تعالت صرخات المارة بارتياعٍ، وارتفع نفير السيارات التي نجت من موجة التصادمات التي نجمت عن هذه الفوضى.
نظر سائق شاحنة نقل الموتى إلى المرآة الجانبية بانزعاجٍ، وقد أدرك أن صراخ المارة المريع مرتبطٌ به على نحو ما، وبحركةٍ تلقائيةٍ، ضغط مكابحه بعنفٍ بشكلٍ مفاجئٍ.
كانت سيارتا المهاجمين تحاولان الرجوع إلى الطريق بعد أن نالهما أكثر من اصطدام. كان حاتم يتابع كل ذلك بكل تأهبٍ، وما أن توقفت الشاحنة؛ حتى قفز من فوره مُنتهزًا الهرج.

***

انسلَّ حاتم إلى شارعٍ جانبيٍّ هادئٍ نسبيًا وهو يركض بلا هدًى، وما درى حتى قفز مع توالي الرصاص المباغت، تسابقت السيارتان لتطوقانه فيما ركض حاتم في مسارٍ عشوائيٍّ والرصاصات تتقافز تحت أقدامه. وبعد أن بدأ يقتنع أن النهاية اقتربت فعلاً؛ تجاسر بأن عرج إلى أول زاوية قابلته، كانت حارةً ضيقةً نسبيًّا، طفق يركض وقد نال منه اليأس. بغتةً تناهى إلى مسامعه هدير سيارةٍ تقترب،

التفت بجزع متوقعًا المهاجمين، ففوجئ بسيارة كوبيه رياضيةٍ تقف جواره تمامًا بفرملةٍ قويةٍ، انفتح بابها لينبعث من داخلها صوتٌ أنثويٌّ حازمٌ: "اركبْ!" نظر حاتم داخل السيارة غير مستوعب، فوجد وراء عجلة القيادة فتاةً ذهبية الشعر، ترتدي عويناتٍ ضخمةً تغطي معظم وجهها. صاحت به ثانيةً آمرةً بلهجةٍ قاطعةٍ: "اركبْ حالاً وإلا قتلوك!" في اللحظة ذاتها انهمرت الرصاصات لتشق الشارع الضيق، فقفز حاتم بلا ترددٍ.

وانطلقت السيارة الكوبيه من فورها كالطلْقة، وفي عقبها سيارتا المُطاردين.

***

مال حاتم مع السيارة التي دارت بزاويةٍ حادةٍ، فيما كان يربط حزام سيارته متعجلاً، بصوتٍ لاهثٍ هتف: "حمدًا لله، بغض النظر عن ظهورك المفاجئ؛ لكنكِ أنجدتني." تجاهلته وهي تقود بتركيزٍ شديدٍ، كانت تنسلُّ بين السيارات بمهارةٍ فائقةٍ، مستغلةً حجم سيارتها الصغير، فيما تعالى صوت السيارات المجاورة باحتجاج مع إصرار سيارتيْ المُطاردين على ملاحقتها. صدر صريرٌ عالٍ من إطاراتها مع انعطافها المباغت إلى شارعٍ جانبيٍّ، أقل ازدحامًا، تبعتها السيارتان بإصرارٍ، ومع قوة السيارتيْن رباعيتيْ

الدفع، نجحت إحداهما بالاقتراب من الفتاة الغامضة، وشرعت من فورها بإطلاق النار، ولكن الفتاة تفادته بمناورةٍ بارعةٍ متّخذةً مسارًا حلزونيًا. كان حاتم متشبّثًا بمقعده، جاحظ العينين، واشتعل حلقهُ جفافًا عندما لمح نهاية الشارع مغلقةً تمامًا بسبب تكدس السيارات، وما يدري إلا والفتاة تشدُّ مكابح السيارة بغتة، لتدور بها بزاوية ١٨٠ درجة، حيث باتت مقدمتها تواجه السيارتين...

وجهًا لوجه.

وأصدر المحرك صوتاً هادراً مع انطلاقها بأقصى سرعةٍ تسمح بها سيارتها، منطلقةً بشكلٍ مباشرٍ صوب سيارتيْ مُطارديها، كأنما تريد الاصطدام المباشر.

صُعِقَ حاتم، وحبس أنفاسه، وجد نفسه يصرخ: "سنصطدم بهم يا بنت المجنوووووونـــــــــة!."

ذهل سائق سيارة المطاردين الأقرب إليها، وجفل للحظة، قبل أن ينحرف بسيارته في آخر لحظة ليتفادها، ليصطدم بعنفٍ بالرصيف الأسمنتي لِيَعْتَلِيَه. وكذا فعلت السيارة الرباعية الدفع الأخرى، في الوقت الذي مرّت فيه السيارة الكوبية بينهما كالبرق.

تعالى الصخب في الشارع احتجاجًا على الفوضى فيما عادت السيارتان إلى نهر الطريق لمعاودة الملاحقة بتصميمٍ، وما لبثتا

أن نجحتا بالإطباق على سيارة الفتاة عن يمينٍ وشِمالٍ. انتفض حاتم وارتدّ إلى الخلف مع يد الفتاة التي ارتفعت فجأةً بمسدسٍ لتطلق النار مباشرة على السيارة التي توازيها من اليمين، خرجت السيارة فورًا من المطاردة بعد إصابة ركابها، لتنطلق سيارة الفتاة، فيما طاشت رصاصات السيارة الأخرى التي تطاردها بإصرارٍ.

لمحت الفتاة الغامضة لافتةً تفيد اقتراب نفق الأزهر، بحركةٍ مفاجئةٍ، اعتلت الرصيف بسيارتها، لتنزل إلى الشارع المقابل، حيث مخرج النفق من الناحية الأخرى، وبلا ترددٍ اقتحمت النفق، حيث واجهت السيارات القادمة، التي أطلقت نفيرها بلا توقف، فيما مرّتْ بينهم بسيارتها الكوبيه غير مباليةٍ بسيرها عكس الاتجاه.

تجمد حاتم ذهولاً ورعبًا، التفَتْ يرمقها وقد جفل كمن ينظر إلى مجنونةٍ، استغرب وجهها الذي بدا خاليًا من التعبيرات.

لمحت في المرآة الخلفية سيارة المُطاردين تلاحقها، فزادت من سرعتها لتنسلَّ ببراعة بين السيارت المقابلة التي تواصل نفيرها المحتج. تناهى إلى مسامعهما أصواتُ اصطدامات، وصريرُ فراملَ قويةٍ، وصراخٌ. أدركت الفتاة أن السيارة الرباعية الدفع الكبيرة عجزت عن مجاراتها.

ارتسم شبح ابتسامة على جانب شفتيها، تبخر آنيًا وهي تخرج

أخيرًا من نفق السيارات لتقفز فوق الرصيف بعنفٍ، ثم تعود إلى مسار الطريق الطبيعية مرةً أخرى.

انطلقت بسرعةٍ قصوى نحو جهةٍ ما، لم يكترث حاتم، إذ كان مأخوذًا مشوشًا إذ واجه الموت أكثر من مرةٍ خلال أقل من ساعةٍ. وما شَعَرَ إلا وهي تضغط مكابح السيارة بشدةٍ، لتتوقف السيارة بغتةً بصريرٍ مزعجٍ. التفت إليها فإذا بها تقبض على معصمه ، شعر بقوة قبضتها رغم السوار المعدني الذي يُحيط بمعصمه، نظرت إلى عينيه مباشرةً وصوتها الآمر الصارم يدوي في أذنيه: انفذ بجلدك."، تلعثم، حاول أن يستفسر أكثر، لكنها نظرت إليه بثباتٍ قبل أن تومئ إليه بالنزول، نظر حوله فوجد منطقةً هادئةً خاليةً تمامًا من البشر، على الجانبين بناياتٌ غير مكتملة الإنشاء. عاود النظر إليها عبر عويناتها الزجاجية الشفافة فجمّده ثبات نظراتها، نزل صاغرًا مضطربًا، وما كاد يغلق الباب حتى ارتفع هدير المحرك وهي تنطلق بسيارتها كالرصاصة.

تابعها واجمًا حتى اختفت، ثم ضرب كفًا بكفٍ وهو لا يدري إلى أين يتجه.

***

كانت سناء مُنكبّةً تكتب أحد الموضوعات، عندما انبعث بغتةً أزيزٌ

مميزٌ عن حاسوبها، انتبهت فوجدت ما يُفيد استلام رسالة، فتحتها لتجد الصور التي التقطها حاتم لجريمة تعذيب وقتل سميح الشريف، مدير المستشفى الاستشماري. زوّت ما بين حاجبيها وهي تتنقل بين الصور، شعرت بصعوبةٍ حقيقيةٍ في المتابعة بسبب بشاعة التعذيب.

وبرغمها؛ سالت منها دمعةٌ ساخنةٌ.

***

تفقّد رجلٌ مكتظ العضلات جانب سيارته رباعية الدفع الذي تحطّم بالكامل، في أذنه كانت سماعة البلوتوث تنقل صياح رئيسه الغاضب، بدا على الرجل المكتظ العضلات الارتباك وهو يعتدل قائلاً لمُحدّثه: "يا باشا لقد كنا أقرب ما يكون من النيل منه وإحضاره، ولكن انشقت الأرض بغتةً عن شيطانةٍ التقطته وهربت به." جاءه صوت زعيمه عميقًا رزينًا: "أن تفعل بنتٌ واحدةٌ بكم كل ذلك؛ فمؤكدٌ أنها غير عادية." أسرع الرجل مُعقبًا: "لقد صورناها سيادتك، الصور ستصلك حالاً." قال رئيسُه: "إلى أن نكشف عنها؛ الولد الصحفي مسئوليتكم الوحيدة، بقية مهامكم قد حَوّلتُها إلى آخرين"، وغلظت نبراته وهو يردف بلهجةٍ تهديديةٍ: "وأنت تعلمون طبعًا جزاء من يُقصر معنا."

وتبدى الاضطراب بأعتى صوره على ملامح الرجل مكتظ العضلات.

* * *

انعكس الضوء الأصفر لعامود الإضاءة الذي يقابل فيلا حاتم الصغيرة بالتجمع الخامس، على الأسفلت، ليفترش اللون الأصفر الأرض كذرّاتٍ صغيرةٍ متلألئةٍ فوق الأسفلت الجديد. على الجانب، كان صابر، الرجل العجوز، جالسًا على رصيف الفيلا، منكفئ الرأس، كسيف البال. لم يَكُفَّ لساعتين عن التحديق في ساعة يده من وقت لآخر، منتظرًا حاتمًا. آملاً أن يجد لديه جديدًا بشأن حفيدته. تنهد بنفاد صبرٍ، لم يستطع المكوث في منزله انتظارًا للمكالمة التي وعده بها الصحفي، فأتى إليه هنا، (نعم)، قال صابر في نفسه (سآتي يوميًا، حاتم فهمي صحافيٌّ شهيرٌ، ومن الوارد أن ينشغل عن طلبي، لذا يتعين تذكيره)، وتنهد مرةً أخرى، وقد ملأت ذهنه صورة حفيدته الضائعة، وبلا وعيٍ منه، ترقرقت دمعاته الساخنة.

* * *

في أحد شوراع إمبابة، في إحدى البنايات القديمة ذات الواجهات التي اقتصرت على الطوب الأحمر، والملاط الذي يتخللها، كان كريستيان، الكهل الذي ولج العقد الخامس لتوه، يجلس بكلِّ

اهتمامٍ أمام نصف دستةٍ من الشاشات الحاسوبية التي لا تقلُّ كلٌّ منها عن (٢١) بوصة، وأسفلها وأعلاها، وفوق أرففٍ مثبتة في الحوائط، أجهزةٌ رقْميّةٌ حديثةٌ، تناقضت بشدةٍ مع شقته المتداعية، التي لا تزيد عن غرفةٍ مساحتها ثلاثةٌ في أربعةِ أمتار، بالإضافة إلى دورة مياهٍ مُلحقَةٍ. انعكست إحدى القيم الرقمية فوق حدقتيْ كريستيان الخضراويْن، قبل أن يخرج من تركيزه على أزيز متقّطع ارتفع فجأةً. التفَتَ إلى شاشةٍ جانبيّةٍ، نقلت وجهًا مألوفًا يصعدً الدرج. ارتسم على وجهه الاستياء، ضغط زرًا آخر لتنقل إحدى كاميراته الخفية التي زرعها مسبقًا وجه الزائر وهو يتأهب لطرق جرس بابه. قام قانطًا، وما إن صدح الجرس حتى فتح فُرجةً من بابه المعدني السميك، لم ينس إبقاء سلسلة المزلاج بما لا يزيد فُرجة الباب عن عشرة سنتيمترات، بخشونةٍ فظّةٍ صاح بزائره: "ما الذي أتى بك؟!" ازدرد حاتم ريقه وهو يندفع قائلاً: "تمامًا كما توقعت أنت، طاردوني فور الإرسال، لكنني فلتْتُ منهم بأعجوبةٍ." كريستيان مستنكرًا: "وأتيت إليّ من فورك!." تساءل حاتم: "هل سنظل نتحدث على الباب هكذا؟!" أجابه وهو يشرع بغلق الباب الثقيل: "بيننا أعمالٌ مشتركةٌ نعم، لكنك بوضوح صرت خطرًا. أنت تعلم خطورة ما أفعله، وآخر ما أريده هو أنً

أعرضه للانكشاف." استوقفه حاتم: "لكنني كنت أريدك في مهمةٍ مصيريةٍ."

- فيما بعد.. فيما بعد.

- وأين سأقضي ليلتي بأية حال؟! أنت تعلم أنه لم يعد المبيت في منزلي آمناً.

- هل تستخفُّ بي؟! كلانا يعلم أنك أخذت ملابسك وأنك قابعٌ في غرفة مستأجرة بأحد فنادق الحسين!

- المنطقة تعجّ بشرطة السياحة، وأنت تعلم أن السياحة في أسوأ أحوالها الآن، لذا إن كان من يُطاردونني من الداخلية؛ فسوف يكون اكتشافي مجرد مسألة وقت.

كريستيان وهو يقفل الباب بنفاد صبرٍ: "أريدك أن تجعلني في حالة (تجميد) إلى أن أتصل بك أنا وأحدد متى نتقابل، يكفي أنني أرشدتك إلى مواقع آمنة في الخارج تودع فيها صورك، أما الباقي؛ فليس من مشاكلي، سلام!"

وأغلق الباب بعنفٍ.

***

وقفت الفتاة ذات العوينات الضخمة، والشعر الذهبي، وقفةً عسكريةً ثابتةً، أمام الباب الخشبيّ، قبل أن يرتفع أزيزٌ إلكترونيٌّ

صدح لثانيةٍ، انفتح الباب بعدها. وَلَجَت الفتاة إلى ردهةٍ فسيحة، شبه خاليةٍ من الأثاث، إلا من مناضدَ عاليةٍ، تم تنسيقها لتشكِّل نصف دائرة، تراصّ فوقها خادمان رقميان كبيران، وحواسب معقدة الشكل، وأربع شاشاتٍ كبيرةٍ. ما إن لمحت رجلاً معتدل القوام، في أواسط العقد الخامس، حتى هتفت: "أعلم أنني تأخرت، ولكن كان لابد من المراوغة والتسكع في الشوارع لأتأكد أنني غير ملاحقة."

"أحسنتِ يا مَيّ"، هتف الرجل بهذه العبارة وهو يدور بمقعده ليواجه مَيّ، التي نزعت شعرها الذهبي المستعار، وعويناتها الضخمة، وهي تقول: "تنكري لم يكن متقنًا، ولكن دقة الموقف استلزمت التدخل السريع."

جوار العوينات التي وضعتها توًّا كان هناك صحيفةٌ موضوعةٌ، احتلّ واجهتها عنوانٌ بارزٌ:

"تورط صحفي الفضائح الشهير في شبكة تجسس"

وجوار الخبر صورةٌ لشابٍّ تحتها اسم: "حاتم فهمي." لم تكترث مَيّ إلا لإحدى الشاشات التي نقلت خريطةً ما، تتحرك عليها نقطةٌ ضئيلةٌ ببطءٍ. هتف بها قائدها الأمني "نادر الناجي"، وهو يتابع النقطة المتحركة ذاتها: "أحسنت صنعًا، الأداة التي ألصقتِها بحاتم

تعمل بكفاءة." مع عبارته وَمَضَ في ذهن مَيّ لحظة أن قبضت على معصم حاتم، قبيل مغادرته السيارة، إذ دون أن يشعر ألصقت بجانب سواره المعدني أداةً مغناطيسيةً أصغر من حبة العدس، تعمل كـأداةٍ بنظام GPS لتحديد المواقع[١].

قام نادر بتحريك الخريطة وهو يقول: "كما ترين، هاتان النقطتان توقّف بهما حاتم لفترةٍ وجيزةٍ، قبل أن يعاود التحرك ليتضح من مساره أنه يُغادر القاهرة." مالت مَيّ لتحدق بتركيزٍ إلى النقطة المتحركة على الخريطة، قطّبت حاجبيها: "إنه يسلك أول طريق القاهرة – إسماعيلية الصحرواي." راقب نادر بعض الأرقام على جانب الشاشة: "بحسب معدل السرعة الثابت ذاك، فالأرجح أن له أحد وجهتين، إما الإسماعيلية، أو بورسعيد." ونهض وهو يستطرد بحزمٍ: "يجدر بنا التحرك الآن، أعِدّي سيارة العمليات حالاً، وسألحق بكِ بعد دقائق." وضاقت عيناه: "يجب ألا يغيب عن أعيننا قط."

❋ ❋ ❋

تألقت اللافتات الإعلانية العملاقة فوق أسطح المنازل والبنايات على جانبيْ كوبري ٦ أكتوبر، والتي تحمل دعايةَ البرنامج الشهير

---

(١) هي اختصار لـ Global Positioning System، وتعني بالعربية: النظام العالمي لتحديد المواقع .

"آسفين يا مصر" مع الوجه والابتسامة الماكرة المميزة للمذيعة الأشهر في مصر "لمياء الخشاب". في ذات التوقيت، كان الناس في شتى البقاع يجتمعون مشدوهين أمام أجهزة التلفاز لمتابعة البث المباشر لبرنامجهم المفضل "آسفين يا مصر".

وفي استديو البرنامج، استعملت لمياء أكثر ابتساماتها تألقًا، بعد أن أخذت إشارة بدء البث من المخرج، وهي تواجه الكاميرا: "أهلًا بكم أعزائي المشاهدين، وحلقةً جديدةً من برنامجكم، آسفين يا مصر." وتحولت إلى كاميرا أخرى وهي على ذات الابتسامة: "ومع فقرتنا الأولى، يسعدنا تواجد رجل الصناعة المصرية، عضو مجلس الشعب الدائم في العشرين عامًا الماضية، ابن الصعيد.. صمدي محمد الوحش."

تحولت الكاميرا إلى الضيف الذي ابتسم بلزوجةٍ، وهو يُعقّب بلهجة صعيدية: "في الحقيقة أنا لم يفلت مني سوى مجلس الشعب الذي حَلَّتْهُ المحكمة الدستورية."

عقبت لمياء خبثٍ: "لهذا السبب أنا لم أذكره"، واستدركت: "بما أنك نائبٌ قديمٌ، ولك خبرةٌ سياسيةٌ وصناعيةٌ كبيرةٌ، نريد منك أن تُحدثنا الليلة عمّا نحتاجه كي تنهض مصر من عثرتها، وتستأنف التقدم."

صعَّر خدّهُ بعَظَمَةٍ: "أنا لا أرغب في ولوج المواضيع التي تعجّ

بالجدل، نحن لا نريد سوى مصلحة أُمِّنا مصر، لأجل ذلك سألِجُ في الموضوع مباشرة، لا يخفى على أحد أن مصرنا في موقف صعب، وهناك حاجاتٌ لها الأولوية، بما يعني ليس من المناسب أبدًا أن نترك هذه الأولويات لينشغل مجلسنا النيابي بمواضيع من أمثال تحديث صناعة الأدوية أو زراعة الأعضاء!"

– لكنهم يقولون إنّ هذه المواضيع تمس المواطن المصري.

– تمسه كيف يا أستاذتنا؟! الشعب المصري يريد أن يأكل، ينام آمنًا في بيته، يشتري -لامؤاخذه- حذاءً جيدًا لابنه، تقومي إنتِ تريدين شَغْلَ رأسه بتعقيدات من أمثال صناعة الأدوية ونقل الأعضاء؟!"

باستدراجٍ خبيثٍ قالت: "ولكن أعضاء المجلس كانوا يؤكدون أن المصريين ينتظرون هذه القوانين."

بنفاد صبر: "يا أستاذة، غالبية الشعب المصري بالكاد يأكل ويشرب، فأَنَّى له أن يجد الوقت ليفكر في نقل الأعضاء وتكاليفه؟ على سبيل المثال!" وأردف بنبرة من يُدلي بشيءٍ خطيرٍ: "ثم إنّه حرامٌ أصلاً."

ابتسمت بتَهَكُّم: "ماذا تقول يا صمدي بك؟ وهل تظن أن يشرع مجلسنا النيابيٍ شيئًا حرامًا؟!"

صمدي مُتصنعًا الأسف: "وهل لا زلتِ تسألين يا أستاذة؟! أقول

لكِ: السادة المشاهدون أذكياء وواعون ومدركون لكلِّ شيءٍ، دعينا صامتين أفضل."

* * *

دسَّ حاتم المفتاح في رتاج باب الشاليه، الذي استأجره في إحدى القرى السياحية بمحافظة بورسعيد، فتح الباب بحرصٍ وكأنما يخشى أن يُحدث صوتًا، أغلق الباب بعد أن أوصد المزلاج، وضع حقيبته الصغيرة جانبًا، وألقى نفسه فوق أقرب أريكة، لم يُبالِ بالظلام الذي يغرق الشاليه، فقط أغلق عينيه بإرهاقٍ طاغٍ، ليسقط في نومٍ عميقٍ.

* * *

٥

داخل أحد مطاعم الوجبات السريعة بشارع "طرح البحر"، طالع حاتم قائمة الطعام المصورة تزجِيةً للوقت انتظارًا لإتمام طلبه، قبل أن يرتفع رنين هاتفه المحمول، تناوله وهو ينهض متجهًا لأحد الزوايا غير المطروقة، استقبل المكالمة بصوت خافت:

- خير يا كريست.

- لقد استطعت معالجة المناطق المظلمة بالصور، وكشفت لك شخصية الرجل ذي السيجار الجالس فوق الكرسي بمواجهة الضحية.

تصاعدت ضربات قلب حاتم وهو يسأل مترقبًا:

- من هو؟

- رعد.. رعد السيد عبد التواب

تدلّى فك حاتم ذهولاً، فيما كانت كلمات كريستيان القاطعة تأتيه عبر الهاتف: "إلى هذا الحدّ وكفى، لن أكون معك بعد ذلك، الرب معك."

***

كانت سناء في صالة التحرير، منحنيةً على أحد المكاتب تراجع أحد الموضوعات، بغتةً انبعث رنين هاتفها المحمول، نظرت إلى الرقم بإمعانٍ، ثم أجابت المكالمة وقد شرعت في التحرك على غير هُدًى:

- أين أنت؟!

- كم أحب أن يفتقدني الجميع هكذا.

- لا يجدر بك التهكم وأنت في ورطتك هذه!

- هل وصلتكِ الصور؟

- بشعة.

- هل استطعتِ تمييز من بها؟

- باستثناء الضحية سميح الشريف؛ لا.

- أنا استطعت بفضل برنامجٍ خاصٍّ، إجلاء الظلام، ومعرفة شخصية قائدهم

- من؟

- رجل الأعمال الشهير.. رعد السيد عبد التواب!

واتسعت عينا سناء ذهولاً.

***

التجمع الخامس، فوق الرصيف الإسمنتي لفيلا حاتم، قبع الجدُّ

العجوز صابر يرقب الطريق الخالي، وينظر إلى فيلا الصحفي الشهير من حينٍ لآخر، شعر بقطرات العرق تنزلق فوق عموده الفقري، كان الجوُّ شديد الحرارة في هذا الوقت بعد الظهيرة، ولكنه لم يتوانَ عن القدوم والمثابرة أمام الفيلا عسى أن يُلاقي الصحفي الشهير الذي وَعَدَهُ بالمساعدة. أخرج هاتفه المحمول ليعاود طلب رقمه. وضع الهاتف على أذنه ليسمع الرسالة المسجلة التي تفيد غلق الهاتف. تنهد بإرهاقٍ ويأسٍ وهو يعيد الهاتف إلى جيب سرواله. بغتةً ارتفع الرنين، نظر إلى شاشته فوجد اسم (أبو فاطمة)، جفّ حلق صابر، انقبض صدره، هذا ابنه يسأل عنه وعن ابنته قطعًا. عضَّ العجوز شفتيه بمرارةٍ وهو يتجاهل المكالمة ويعيد الهاتف إلى جيبه، أدار رأسه إلى الفيلا الخالية برجاءٍ، فيما دموع العجز والقهر تنساب فوق دروب وجنتيه بصمتٍ.

***

دخل حاتم إلى الشاليه الخاص به، شعر بالاطمئنان للظلام وهو يضع طعامه السريع فوق أقرب طاولة، هَمّ بالتوجه لسحب الستائر المُسدلة عندما تجمد بغتةً على صوتٍ أنثويٍّ هادئٍ انبعث من اللا مكان: "اترك الستائر مُسدلةً طلبًا للتأمين، واضغط مفتاح الإضاءة بالجدار على يسارك." انتفض حاتم وهو يضغط المفتاح، لتعمّ

الإضاءة الصالة، فوجئ بذات الشعر الأصفر جالسةً بثقةٍ فوق أريكةٍ وثيرةٍ وتنظر إليه بثباتٍ، (مهلاً.. الوجه والصوت ذاته، ولكن شعرها بنيٌّ طويلٌ هذه المرة!) حدَّث حاتم نفسه وهو يقترب ليجلس قبالتها بتوتُّرٍ ذاهلٍ، هتف: "بسم الله الرحمن الرحيم، أهو أنتِ؟!" ردّت عليه بأن مدت ذراعيها وشبكت أصابعها وكأنما تؤدي تمرين إطالة، فيما عيناها ثابتتان عليه لا تختلجان. ضرب مسند الأريكة بقبضته وقد تضاعفت عصبيته: "كيف عثرتِ عليّ؟! حتى هذا الشاليه حجزه معارفي، وليس محجوزًا باسمي!" تجاهلت تساؤله وهي تقول له بلهجةٍ حازمةٍ: "يتعين عليك ترك هذا المكان، إنه غير آمن، ونحن في سبيلنا لتدبير ذلك قريبًا جدًا." صرخ: "من أنتم؟!" نظرت إلى عينيه بثباتٍ: "نحن من أنقذناك ممن كانوا يبغون قتلك." شعر بالاستفزاز من هدوئها، لأول مرة يشعر بالاهتزاز أمام شخصٍ ما، دائمًا ما كان يتهكم ويحصُر متحدّيه في الركن، لكن مع هذه؛ يشعر أنه هو الذي في الركن! نكس رأسه كي لا يظهر ما بخلجاته من اضطرابٍ، لبث برهةً حتى نفض التشوش عن ذهنه قبل أن يرفع عينيه إليها، بصفاءٍ هذه المرة، وطفق يتأملها؛ بُنِّيَّةُ الشعر، عسليةُ العينين، وجهها دائريٌّ مع ذقنٍ بارزةٍ نوعًا، قمحيةُ البشرة، نحيفةٌ. بدا جليًّا من قوامها أنها تمارس الرياضة بانتظام. هتف بها: "أرى أنّ

شعرك ليس ذهبيًّا كما كان في السيارة؟"
لم تَرُدّ، اكتفت بالنظر إليه نظرةً خاليةً من التعبيرات. هتف بها: "حسنًا، أنتِ تعملين لحساب من؟" لبثت صامتةً برهةً قبل أن تجيب: "نحن أناسٌ خائفون على هذا البلد، ونترجم خوفنا في أفعال؛ لا أقوال." لم يَبْدُ عليه أنه فهم جملتها، قال بلهجة من يُغازل: "ما أسعد مصر إن كان محبوها بكل هذا الحُسن"، برغمه خرج صوته خافتًا، تابعت هي وكأنما لم تنتبه لجملته: "بلدنا فيها خيرٌ كثيرٌ، لكن للأسف السواد طاغٍ ومانعٌ غيرَه من الظهور." واعتدلت وهي تستطرد: "اسمع، لا وقتٌ لشكوكك، اطرحها جانبًا، نحن في قاربٍ واحدٍ، ولا أبغي إيذاءك وإلا كان الأسهل أن أتركك لهم. وأنا لا أستدرجك ولا أريد أن آخذ منك شيئًا على فكرة."
تصنع الهلع وهو يضمُّ ساقيه منكمشًا: "ماذا تريدين منِّي إذن؟!"
تأملته باستهجانٍ قبل أن تجيب: "صَدَفَ أن من يُطاردك جهاتٌ تحتل مواقعَ هامّةً، خطيرةً، في الظروف العادية؛ لا يمكن أن يلتفتوا لصعلوك مثلك؛ لا تؤاخذني." ربَّتْ براحته على صدره وهو يومئ برأسه وكأنما يقول (الله يكرم أصلك).
أردفتْ: "أحد أطراف هذه الجهات، من هو خطيرٌ للغاية، كنا نترصده نحن دون أن نوفق في الإيقاع به، إلى أن...."، قاطعها

مستهزئًا وهو يُشير بسبابته لنفسه: "إلى أن ظهر الطُعم الذي ستصطادوه به." مطَّتْ شفتيها: "الأمر ليس بهذه السطحية"، وأردفت: "لا أدري لماذا أنت متشكك هكذا؟! قلت لك لو نريد إيذاءك لتركناك لهم." واختلست نظرةً إلى ساعة يدها لتقول فيما تنهض: "يجدر بي المضي الآن، سأشرح لك بإسهابٍ أكثر في لقائنا القادم." قام هو كذلك قائلاً بضجرٍ: "لا أطيق صبرًا على أجواء محسن ممتاز هذه[1] !"

التفتَتْ إليه لترمقه بنظرةٍ احتار حاتم في تفسيرها (أهي إزدراءٌ أم إشفاقٌ)، هتفت به بحزمٍ ويدها فوق مقبض الباب: "الكل يبحث عنك، لا داعي للخروجٍ، لقد ملأت لك الثلاجة بكل ما تحتاجه من أطعمة، ريثما ندبر لك مكانًا أكثر أمنًا." صاح بها وكأنما لا يصدق أن تمضي ببساطةٍ هكذا: "ألن تسأليني عن أيِّ شيءٍ قبل خروجك؟.. أي شيء؟" رمقته بلا اكتراثٍ قبل أن تستدير لتخرج. رفع صوته: "لقد علمت توًّا شخصياتٍ بعينها متورطةً في هذا الموضوع.. شخصياتٍ رفيعةً جدًا."

التفتت إليه مَيّ، تابع: "امكثي دقائق قليلةً وسأقص عليكِ آخر ما توصلت إليه، لعلنا نساعد بعضنا بعضًا."

---

(١) شخصية درامية لرجل مخابرات وردت ضمن رواية «رأفت الهجان» لـ صالح مرسي

وكان جواب مَيّ نظرةً ثابتةً.

***

احتلت صورة رعد عبد التواب كامل شاشة حاسوب سناء، فيما تراقص فوق صورته سهمٌ دقيقٌ خاصٌ بالفأرة، التي جعلت سناء تحركها في اتجاهات عشوائية، في الوقت الذي كان ذهنها يشرد بعيدًا. مكثت برهةً على هذه الحال، حتى اعتدلت بغتةً لتتناول الهاتف الداخلي وتطلب رقمًا: "من فضلك أرسلْ لي رئيس قسم الحوادث حالاً." ووضعت السَمَّاعة لتعود لشرودها، والحركات العشوائية للفأرة.

دقائقٌ قليلةٌ ووجدت (ماهر) رئيس قسم الحوادث يجلس أمامها، سألها: "حضرتك أرسلتِ إليّ؟"

"أليس هذا شقيق إسماعيل عبد التواب، المستشار السياسي لرئيس الجمهورية؟" سألت سناء وهي تدير شاشة حاسوبها إليه.

"نعم هو، ولكن رعد هذا يختلف كليًّا عن شقيقه الأكبر، أقل ما يُقال في رعد؛ أنه أحظّ رجال الأعمال في مصر."، وأخرج سيجارة أشعلها وهو يسترسل: "هذا الرجل لم يكن معروفًا في مصر لعشر سنواتٍ مضت، بغتةً ظهر، ولمع نجمه، قالوا إنّه أمضى عمره في الخليج يعمل بالمقاولات، قبل أن يعزم فجأةً العودة إلى

الوطن." ونفث دخان سيجارته بعمقٍ: "لقد عمل في كلّ شيءٍ، تصدير رخام وجرانيت، مقاولاتٍ ومناقصاتٍ بالأمر المباشر، الشريكُ الأكبر في أكبر المشروعات السياحية في مصر، شراكةٍ في صحفٍ مستقلةٍ. كثيرون وقتها ثارت شكوكهم في ظهوره وصعوده المفاجئ على الساحة، ولكن وجوده ضمن دائرة النخبة الخاصة بالحزب الوطني، ردعت الكل عن أن يفكر في الحفر وراءه."

سناء بدهشةٍ: "شتان إذن بين اتجاهيّ الأخوين الأيدلوجي."

"رعد وإسماعيل فعلاً على طرفيْ نقيضٍ. لكن كافة العائلات بها الصالح والطالح"، قال ماهر كمن يقرر أمرًا بديهيًا.

"ما زلت أجد صعوبةً في استيعاب أن رجلاً بسجلٍ فاسدٍ كرعد، يكون أخًا لأستاذٍ جامعيٍّ، وقيادةٍ فكريةٍ إسلاميةٍ كبيرةٍ مثل إسماعيل عبد التواب، بل يكون في مؤسسة الرئاسة كما هو الآن!"

لوّح ماهر بكفه بعدم اكتراث أمام تعجُّب نائب رئيس التحرير، قال: "إن كنتِ ترومين معرفة كيفية قبولهم رجلاً له أخٌ بهذا السجل المشبوه، فإن سياسة الدولة بعد ثورة ٢٥ يناير هي (ألا تزر وازرة وزر أخرى)." بدت نظرةٌ من عدم الاقتناع في عينيْ سناء، قالت بشيءٍ من الاستهجان المرير: "وماذا تبقى لنا الآن من ثورة يناير؟"

تابع ماهر: "على أية حال، رعد لم يمسَّه شيءٌ يومًا، دائمًا كل ما

يدور حوله هو محض شبهاتٍ بغير دليل، لذا لم يُلاحق قضائيًّا في أي شيءٍ قط، حتى بريقِه الإعلامي، ظلّ كما هو بعد الثورة. حتى كانت تلك الحادثة الأخيرة."

سناء مندهشةً: "أي حادثة؟"، ماهر بدهشةٍ أكبر: "معقول يا أستاذة؟! لم تسمعي بحادثة مقتل ابنته وأسرتها؟!"

مالت إلى الوراء هاتفةً بحسمٍ: "لم أسمع عنها يا ماهر."

قال وهو يُطفئ سيجارته في منفضة سجائر قريبة: "كانت حادثة إطلاق نار في الطريق الساحلي الدولي، أعتقد بعد دمياط الجديدة." ولمح في عينيها رغبةً في الاستزادة، فهزّ منكبيه: "لم يتسنَّ للصحافة أن تعرف أكثر، فقد صدر قرارٌ سريعٌ من النائب العام بمنع النشر."

"ولماذا؟!"، تساءلت سناء، مَطَّ ماهر شفتيه وهو يرفع منكبيه؛ أن لا إجابة. هتفت به سناء: "أريد تفاصيلَ أكثر." أخرج هاتفه المحمول: "ما دام الأمر يهمك لهذا الحد، سأجري اتصالاً مع أحد مصادرنا في مصلحة الطب الشرعي." وضرب الرقم، سريعًا وهتف بمُحدِّثه مُتهللاً: "حبيب القلب، أين أنت يا رجل؟ فترةً طويلةً لم نَرَكَ فيها."، رأته سناء يبتسم إلى مُحدّثه فيما يستمع له، قبل أن يقول: "أشكرك، أنت مرحبٌ بك دومًا، بالمناسبة، لي عندك

استفسارٌ بسيطٌ، منذ بضعة أشهر كانت لديكم حادثة لابنة رعد عبد التواب، تعرفه طبعًا."، ولبث ثوانٍ يتابع رد محدثه، قبل أن يُتابع: "نعم، الحادثة التي كان ضحاياها زوجها وابنتهما الصغيرة كذلك. من فضلك، هل لديك ملخص التقرير النهائي للحادثة؟." وتناول سيجارةً أخرى فيما ينصت إلى محدثه، حتى اعتدل هاتفًا: "أعلم طبعًا بأمر حظر النشر. اسمع؛ هذا حديث بيني وبينك، ومكافأتك عندي على أية حال." والتقت عيناه بعيني سناء، التي كانت تتابعه بتركيزٍ، أومأ إليها وهو يُشعل سيجارته، بغتةً سقطت السيجارة من بين شفتيه، وهو يردد: "معقولة؟!"

تابعته سناء وقد قطب جبينه وتغير وجهه، ولم يزد أن قال وهو يُنهي المكالمة: "هذا كافٍ جدًا، شكرًا لك.. نعم.. نعم.. سأنتظرك." ووضع هاتفه جانبًا وقد شرد للحظات، قبل أن يعود بناظريه إلى سناء: "يقول هذه الحادثة تحديدًا تمّ فرض التعتيم على الفحص بشكلٍ غير عاديٍّ، ولا يوجد في المصلحة بأكملها من يعرف محتوى التقرير، أما الفحص ذاته فقد قام به رئيس الهيئة بنفسه، ومنفردًا"، وسحب نفسًا عميقًا من سيجارته: "الغريب، والمريب، أن رئيس المصلحة، فور أن قدم تقريره، استقال من منصبه، وسافر فورًا بعدها للعمل في إحدى الدول الخليجية!"

وظهر التعجب جليًا على ملامح سناء.

في ذات الوقت، وعلى مَبعَدةٍ من مبنى جريدة "اللحظة"، وعند مفترق طرقٍ يطلُّ على مبناها الحديث، تهادت سيارةٌ فارهةٌ، وتبعتها السيارة السوداء رباعية الدفع التي بدا أنها تصاحبها. نزل الزجاج المعتم للنافذة الخلفية للسيارة الفارهة، ليطلَّ وجه رجلٍ في العقد الخامس، حليق الوجه، صلب الملامح، يرتدى بدلةً من أرقى الخامات، بُنِّيَّةَ اللون. رمق على البُعد مدخل جريدة "اللحظة". وبصوتٍ محايدٍ ولكنه قاسٍ أَمَرَ الحارس الشخصي الجالس في المقعد الأمامي: "انزل هنا، واصطحب معك ثلاثة من السيارة المصاحبة. رتبوا الأمر بحيث تكون نوبتجية بينكم، انقسموا بحيث كل اثنين منكم يتفرغ لمراقبة سناء أبو زيد، مدة كل نوبتجية اثنتا عشرة ساعة." ومال نحو الحارس الذي تحول بخصره إليه، هاتفًا بلهجة أرعدته: "وإياكم؛ أن تغيب عن أعينكم."

***

٦

شردت مَيّ في البحر اللانهائي، من مائدتها بالدور العلوي بمجمع المطاعم، بمحافظة بورسعيد. وهبت نسمةٌ صباحيةٌ معبقةٌ بنسيم البحر، ملأت بها رئتيها باستمتاع. أتى النادل في هذه اللحظة، ليضع أمامها فنجان القهوة المذابةً باللبن، فيما وضع أمام قائدها "نادر" قدحًا من القهوة التركية، ليفوح في المكان شذى الحبّهان. قال نادر بعد أن ابتعد النادل: "ما سمعته منكِ، عن المعلومات التي بحوزة حاتم، حفزني على سؤال أحد عملائنا بالطب الشرعي، والذي نجح في الوصول للتقرير الخفي." تركت أناملها ملامسة الفنجان الساخن، ورفعت عينيها إليه بانتباهٍ، أردف: "ابنة رعد وأسرتها لم يلقوا مصرعهم بسبب رصاص قاطعي الطرق، ولا بسبب حادثة طريق. التقرير أثبت وجود حياكةٍ بدائيةٍ لمناطق شتى بجسدها، وبالفحص الدقيق تبين سبب مصرعهم." وأدار وجهه ليتأمل أمواج الشاطئ في تلاطمها بالرمال، زفر قبل أن يواصل: "الأمر في حقيقته أنه تم اختطافهم من الطريق، وبعد تعذيبهم؛

سرقوا أعضاء أسرةٍ بكاملها!"

وضعت مَيّ أناملها فوق فمها بجزعٍ، بصعوبةٍ خرج سؤالها: "ويشمل ذلك ابنتهم الصغيرة؟!"، تابع نادر نافيًا: "لا، فبرغم حالتها البائسة إلا أنّها نجت بأعجوبة، غير أنّهم لم يكتفوا بذلك؛ المفارقة البشعة أن ابنة رعد عبد التواب كانت حاملاً.. في شهرها السابع." جحظت عينا مي، كافحت رغبةً مباغتةً بالقيء بعد أن ومض في ذهنها احتمالٌ ما، انفرجت شفتاها لتقول ببطءٍ: "أرجو ألا يكونوا قد..."، قاطعها بغضبٍ مكتومٍ: "نعم. للأسف، سرقوا جنينها كذلك!"

وفي ذات اللحظة، على بعد مئات الكيلومترات، في العاصمة المصرية، كان ضوء النهار يتسلل عبر شيش نافذةٍ كبيرةٍ لمكتب إحدى الشركات، لينعكس الضوء على صورةٍ مؤطّرةٍ موضوعةٍ فوق سطح مكتبٍ فاخرٍ ببذخ. كانت الصورة لابنة رعد وزوجها وابنتهما. الثلاثة يضحكون بسعادةٍ صافيةٍ. تناول رجلٌ في العقد الخامس، حليق الوجه، جامد الملامح، الصورة المؤطرة، تأمل صورة ابنته وقد بدأت ملامحه تتخلى عن جمودها لتظهر على قسماته مزيج من الألم والوعيد وهو يتأمل الصورة.

وإلى جانبه، كانت يسراه تقبض بقوةٍ على خنجرٍ رهيب المنظر، ملوحًا به ببطءٍ.

***

شرد حاتم في الصوت المميز لهدير أمواج البحر، المتفاوت علوًا وخفوضًا، وهو يستند بمرفقيه إلى سور شرفة الشاليه، وسبحت عيناه في المشهد المميز للبحر اللانهائي ذي الأمواج الرمادية اللون، والزبد الأبيض الذي يتزايد كلما اقتربت الأمواج من الشاطئ. أخذ نفسًا عميقًا من النسيم المميز للبحر، وهو يحاول بعينيه بلوغ منتهى البحر، الذي بدا له غير متناهٍ. ارتفع رنين هاتفه المحمول، أجفل وقد شعر للحظة بالضيق لانتزاعه من هذا الشرود اللذيذ. استدار ليتناول هاتفه من فوق طاولة من الخوص المجدول، كانت سناء، سألته مباشرة:

– هل توصلت إلى شيءٍ جديدٍ؟

– لم يأتني جديدٌ بعد ما أخبرتكِ به.

– حسنًا، بشأن رعد عبد التواب، ذلك الذي ظهر في الصور، لم أجد شيئًا يُدينه. ولكن الرجل ذو سُمعة مُريبة، وقد انسحب من الإعلام بعد حادثة ابنته التي...

قاطعها:

- أعلم موضوع ابنته وأسرتها التي خرج عليهم قاطعو طرق و...

قاطعته هي في حدة:

- هل تعلم كذلك أنهم قضوا في حادثة قتلٍ غير عادية؟!

في حذر:

- ماذا تقصدين؟

- لقد علمت من مصادري، أن تقرير الطب الشرعي الخاص بالحادثة تم التكتم عليه بطريقةٍ غير مألوفة، ومثيرةٍ للشكوك، فلم يطّلع عليه أحد، وفحواه مجهولةٌ للكل، أمّا رئيس المصلحة ذاته؛ فقد ترك المصلحة، وسافر ليعمل في الخارج، فور انتهائه من التقرير!

استدار حاتم ليرقب بعينين لا تريان مشهد الشمس التي شرعت بالغروب، كان مُستغرقًا في التفكير فيما سمعهُ توًّا.. تساءل:

- ترى ما العلاقة التي قد تربط مدير مستشفى استثماري كسميح الشريف، برجل أعمال مثل رعد؟.

- بالمناسبة، أظن أنني تحت المراقبة!

- هل كدت تعلمين ذلك توًّا؟! كيف تظنين إذن معرفتهم بمكالمتي لكِ، ومن ثم استجوابك في جريدتك؟!

مُحتدةً:

- يا بني آدم أنا لا أقصد المراقبة الهاتفية، فقد فعلت مثلك، واستبدلت هاتفي، وأشتريت خطوطًا جديدةً، أنا أتحدث عن مراقبة أخرى.. مراقبة ميدانية.

وخَفَتَ صوتُها لا إراديا وهي تردف: "أظن أن هناك من يلاحقني، ويُراقب منزلي!"

***

٧

شدّ نادر الناجي قامته في وِقفةٍ عسكريةٍ، برغم زيه المدني، أمام رجلٍ أشيب الشارب، أصلع الرأس، يجلس وراء مكتبٍ كبيرٍ، على أحد جانبيه ساري لعلم مصر.

قال الرجل الأشيب بتؤدةٍ وهو يضغط على كلماته: "لقد آثرت إبلاغك بقرار إحالتك للتقاعد بنفسي.. أنتَ على أية حال لم يبق لك أكثر من عام لتُحال للمعاش قانونًا، لذا لن تخسر الكثير في الواقع بهذا القرار." وتراجع بمقعده الجلدي الوثير وهو يردف بنبرةٍ ذات مغزى: "والجهاز قدر لك- على فكرة- مكافأة نهاية خدمة مُعتبرة، لا يظفر بها إلا قلائل."

قطب نادر جبينه وهو يسأل بصوتٍ قويٍّ واضح النبرات: "مسموح- سيادتك- أعرف أسباب هذا القرار المفاجئ؟"

اكتست لهجة مدير الجهاز بالتكبر والتعنيف: "هناك أشياء إن تم العلم بها، يكون الحساب عليها أشد وأنكى." وصمت للحظةٍ يتفرس في ملامحه قبل أن يستطرد: "أنت لا تعلم مقدار ما بذلته

من جهدٍ كي يقتصر جزاؤك على مجرد إحالة للتقاعد."
بدا على نادر عدم الارتياح، كاد يهمّ بمعاودة السؤال، ولكن إشارةً حازمةً ممعضةً من مديره جمّدته، صاحَبَها انبعاث صوته بلهجةٍ عسكريةٍ خشنةٍ آمرةٍ: "انصراف الآن يا عميد نادر!"
ارتفعت دقات ساعة الحائط لتشير إلى الثامنة مساءً، صوت الجرس المعدني للساعة أخرج نادر من استرجاعه لذكرياتٍ لم يمض عليها أكثر من ثلاث سنوات، لكنها بدت له كأنها أمس، كان في شقته حيث يدير أعماله الاستقصائية. تقدم خطوةً نحو لوحةٍ من الخشب الحُبَيْبيّ، تحتل نحو ثلث الجدار، انتشرت فوقها صورٌ فوتوغرافيةٌ مثبتةٌ بدبابيس لأشخاص كُثر في أوضاع مختلفةٍ. اقترب بوجهه من إحدى الصور، تمعن في صاحبها، قال في نفسه فيما دقات قلبه تتسارع (يوفال مائير.. ترى هل صار الوقت مناسبًا الآن؟).. وبرغمهِ عاد ثانيةً إلى لُجّة ذكرياته.
كان يسير بخطىً بطيئةٍ؛ لكنْ قويةٍ، يحمل صندوقًا خشبيًا يحتوي كل ملفاته الهامة بعد أن سلَّم مكتبه، سار في منتصف الباحة المكشوفة لموقف السيارات. أدار عينيه حول المكان يتفقد الأسوار العالية التي تحيط بمقر عمله، انقبض قلبه وقد قَرَصَهُ الأسف.
ما زال حاملاً صندوقه بكلتا ذراعيه، وهو يحاول فتح باب سيارته،

برغمه انزلق أحد الملفات لتقع منه صورةٌ فوتوغرافيةٌ متوسطة الحجم لشخصٍ ما. زوّى ما بين حاجبيه، وفيما همّ بالانحناء لالتقاطها؛ سبقته يد مَيّ. نظرةً واحدةً إلى الصورة ورفعتها إليه واجمةً: "يوفال مائير..." وضعها داخل الصندوق فيما هي تتابع وقد أطرقت رأسها: "أنا آسفة يا فندم."

وضع الصندوق فوق المقعد الخلفي، رد الباب بقوةٍ وهو يقول عابسًا: "بل أنا الأجدر بالتأسُّف؛ نقيب مَيّ. قراري باختيارك لعملية يوفال مائير، كان السبب الرئيس لإقصائك من الجهاز."

هزت كتفيها بلامبالاة: "نحن لم نلتحق بالجهاز إلا لأجل مصر، نحن لا نخدم أشخاصًا. ومادمنا مخلصين في خدمة وطننا؛ فنستطيع خدمتها من أي موقع." واقتربت منه هامسة وهي تُلوِّح بمفتاح سيارتها: "أنا أكثر العارفين بأن رأس حضرتك- لا تؤاخذني- أصلب من حجر، لذا إن احتجت إليّ، أرجو ألا تتردد، فأنا كما تعلم حضرتك، صرتُ من العاطلين."

أخرجه من شروده مقدم مَيّ، التي دخلت إليه بلهفةٍ، وهي تُلوِّح بعددٍ من التقارير الورقية، هاتفةً بعينين تبرقان انتصارًا: " وصلتنا تقارير جديدة يا فندم!"

***

تقلب حاتم في فراشه وقد قرضهُ الأرق. أزاح الغطاء عنه بضجرٍ وهو يلتفت نحو الباب الزجاجي المواجه للشرفة. تطلع إلى الليل المظلم منصتًا إلى الهدوء المطبق في هذا التوقيت الذي تجاوز منتصف الليل بساعتين، بعد وهلةٍ من التركيز ميَّز هدير الأمواج المتلاطمة في الخارج، استغرب تواصله وعدم انقطاعه حتى صارت شوشرة الأمواج جزءًا من الهدوء المحيط.

نهض وهو يعاود التفكير فيما أرَّقه (تبًا لهذا السجن.. لا أستطيع الخروج أو التجول، حتى شراء الطعام صار محرمًا عليّ، أنا لست معتادًا على هذه الانعزالية). وتناول هاتفه المحمول ليخرج إلى الشرفة. تطلع إلى البحر غير المتناهي، إلا من سفنٍ على البعد تضيء سارياتها ضوءًا خافتًا، منتظرةً دورها لدخول قناة السويس. لمعت في ذهنه فكرةٌ مفاجئةٌ (لماذا لا أهاتف طارق باشا؟ إنه مقدم في أمن الدولة، وبيننا أعمالٌ مشتركةٌ مجيدةٌ أيام نظام مبارك)، ولكنْ، بغتةً خطر له خاطرٌ جعله يقطّب حاجبيه بقلقٍ، ولكنه طرده على الفور وهو يقول في نفسه (لا.. لا، لقد تأكدت بنفسي منذ شهورٍ أنه في الخدمة)، وبادر بطلب المقدم طارق من فوره، وما أن سمع صوته صاح متهللاً: "أهلا بك يا طارق الباشا، يا أحسن ضابط فيك يا أمن يا وطني."

كان الضابط طارق في إحدى المأموريات الليلة، فتنحى إلى أحد الأركان وهو يهتف مندهشًا: "حاتم فهمي! أين أنت؟ ألا تعلم أن الدنيا قُلِبت بحثًا عنك رأسًا على عقب؟!"

- أعلم طبعًا، ما ظنك إذن بسبب اتصالي بسعادتك يا...

قاطعه طارق:

- أنصت إليّ جيدًا، أنت تعلم أنني جاملتك كثيرًا، وسربت لك أجهزةً ومعداتِ تنصُّت لا يحوزها إلى قلائل في أجهزة الدولة، لكن كل ذلك كان قبل ٢٥ يناير ٢٠١١، الآن أنا نجوت بأعجوبة من حركات التنقية الأخيرة، وبالكاد ظَلِلتُ في الأمن الوطني، ولأني أريد أن أظل كذلك؛ فلا تعاود الاتصال بي مرة أخرى!

- يا باشا كلنا نعلم أنكم- والحمد لله- عدتم مرة أخرى، وربما أقوى من السابق. أما عن مجاملاتك لي، فأنا كذلك ما أكثر ما فضحت وحرقت لكم رموزًا من المعارضة وأعداءَ للنظام، وجعلتهم مُسخة للرأي العام.

- الوضع الآن اختلف.

- طارق باشا، أنا لا أريد سوى خدمةٍ بسيطةٍ، بحق العِشرة القديمة. فقط أريد معلومة عن...

قاطعه طارق بغلظةٍ عنيفةٍ:

- يا بني آدم أنت أوقعت نفسك مع أقذر أناس في البلد. بكل حسمٍ أخبرك أنه لم يعد بوسع أحدٍ مساعدتك، أو مجرد الاقتراب منك، إلا وسيحترق بالمعنى الحرفي للكلمة، كما ستحترق أنت.

وأردف بلهجةٍ يقينةٍ:

- إنها مجرد مسألة وقت.

ثم عاد الضابط لانفعاله:

- هل تظن أن ما تورطت به هو سبقٌ صحفيٌّ؟! هؤلاء ليسوا نوابًا فاسدين أو عاهرات من اللواتي تقتات على فضحهن.

ثم أمسك عن الحديث للحظةٍ قبل أن يقول وهو يضغط على كلماته:

- أنت لا علم لك بمن أوقعت نفسك معهم.

وصمت برهةً ليردف:

- هذه الدائرة التي فتحتها لتوك، لن تُغلق إلا بمقتلك.

شحب وجه حاتم، شعر بغتةً بيأسٍ عارمٍ وسوداويةٍ قاتلةٍ. هو بالأصل غير شجاع، وهذا الضابط يواجهه بأسوأ مخاوفه. عاد يسمع صوت الضابط وهو يُحدثه بخشونةٍ وإنذار:

"للمرة الأخيرة أحذرك.. إياك أن تُسمعني صوتك ثانية!"

لبث حاتم ينظر لشاشة هاتفه التي ظهرت عليها عبارة انتهاء المكالمة، في الواقع كان ينظر ولا يرى، إذ انشغل ذهنه بوضع

تصوراتٍ لتطورات ورطته، كلٌّ منها كان أسوأ من الآخر.
وومضت بذهنه محادثته الأخيرة مع كريستيان قبل ساعة، (كل الأمور تشير بقوة إلى أنني في خطرٍ داهمٍ) قال في نفسه وهو يعود لغرفته. وفيما كان يُغلق الباب الزجاجيَّ للشرفة، عقد العزم على قرارٍ خطيرٍ.

***

صباح اليوم التالي، سارت مَيّ بخطواتٍ سريعةٍ لتقطع عددًا من الحدائق الصغيرة، داخل القرية السياحية، قبل أن تدور إلى منعطفٍ رُصِّعت أرضيته بالحجارة، حيث منطقة الشاليهات المواجهة للبحر مباشرةً، والتي يقطن حاتم في إحداها. صعدت مَيّ درجات الدرج بوثباتٍ نشيطةٍ. تأكدت من اعتدال هندامها المكون من بدلة رمادية ذات طرازٍ رجاليٍّ، ولكن بمقاييسَ نسائيةٍ. شدّت ياقة القميص القرمزية باعتدادٍ، ثم طرقت الباب بهدوءٍ. لبث برهة، كررت الطرق أكثر من مرةٍ، ولمّا لم تجد ردًا، تلفتت حولها بحركةٍ وكأنما تنفض شيئًا ما فوق كتفيها، ثم أخرجت مفتاحًا وأولجته في المزلاج؛ ودخلت إلى الشاليه.
قطعت الردهة بخطواتٍ سريعةٍ، "حاتم.."، نادته وهي تدخل غرفةً بعد أخرى، دلفت إلى غرفة نومه، فتحت صوان ملابسه

فوجدته خاليًا من متعلقاته. احمرّ وجهها انفعالاً، أخرجت هاتفها المحمول بحركةٍ سريعةٍ، بانفعالٍ هتفت لمحدثها: "حاتم ترك الشاليه يا أفندم."

أجابها قائدها نادر بصوتٍ حمل نبراته الاستغراب: "كيف ذلك؟! اني أرى نقطة تحركه ثابتةً أمامي على الشاشة." وأردف بتوترٍ: "نقطة تحركه ثابتة عندك؛ في الشاليه."

قالت وهي تدلف إلى الشرفة الخالية: "أين تظهر لديك بالضبط يا فندم؟"

أجاب: "اجعلي بداية البحث من الصالة." بحثت بتوترٍ، أزاحت أريكةً متوسطة الحجم لتنقلب بصخبٍ. فعلت المِثل مع الأريكة الكبيرة، جثت على إحدى ركبتيها وهي تلتقط شيئًا من أسفلها.

وزوّت ما بين حاجبيها، وقد عكست ملامحها أقصى آيات الغضب.

وبين أناملها؛ كان يتأرجح السوار المعدني الخاص بحاتم.

***

بدا طابور السيارات غير كبيرٍ، أمام محطة رسوم طريق القاهرة – إسماعيلية الصحرواي، خاصةً في مثل هذا الوقت من الظهيرة.

ومن بين السيارات التي تنتظر دورها للمرور، كانت حافلةٌ نقل ركابًا تصعد المطب الصناعي توطئة للتوقف جوار كابينة رسوم

الطريق. وبينما سائق الحافلة يبتاع التذكرة، كان حاتم في مجلسه جوار النافذة، يرمق طابور السيارات الموازي شاردًا، وبلا وعي منه؛ تسللت أنامله لتتحسس معصمه الخالي من سواره المعدني المُفضل، (تبًا لهم! لطالما آمنت أن الثقة هي مورد التهلكة) حدَّث نفسه ساخرًا. وفيما ارتجّ جسده مع بدء تسارع الحافلة لمواصلة طريقها، كانت ذكرى اثنتيْ عشرة ساعةً مضت تومض في ذهنه.

كان حاتم يميل للأمام مستندًا بمرفقه إلى إفريز الشرفة، فيما يده اليمنى تضع الهاتف المحمول إلى إذنه، كان يستمع لكريستيان الذي يقول جدية: "لا أشعر بالارتياح للطريقة التي تتصاعد بها وتيرة الأحداث ضدك"، وقبل أن يُعقّب حاتم، كان محدثهُ يستدرك باستغراب: "ما بال الشوشرة التي صارت ملازمةً لكلٍ مهاتفاتي معك؟!"

"أنا كذلك لاحظتها مؤخرًا، لعلها بسبب الهواتف الرخيصة التي أُجري منها هذه المكالمات، أو لعلها راجعةٌ لهدير الأمواج التي أطل عليها من شرفتي الآن"، وبحركة عفويةٍ نقل هاتفه المحمول إلى يسراه، وفيما ينتوي استكمال نقاشه حول مدى المخاطر حوله، كان كريستيان يصيح: "ها قد اختفت الضوضاء، هل غيَّرت مكانك؟" أجاب حاتم: "لا! لا زلت في ذات موقعي، لم أبرح

خطوة!" سمع صوت كريستيان الذي حمل دفقة توترٍ: "ماذا تغير إذن؟، لقد تحسن الصوت بغتةً؟"

- لعلها صدفة.

- لا أؤمن بالصدف، لم يخلق الرب القوانين كي نتجاهلها نحن بعد ذلك بهذه الحجة.

- يا كريستيان لا تذهب تركيزي، أكاد أنسى ما أريدك بشأنه!

تجاهله كريستيان وهو يُصرّ على السؤال، وقد اخشوشنت نبرته:

- قل لي تحديدا ما الذي تغيَّر؟

- فقط بدلت الهاتف من يمناي إلى يسراي.

- أعده إذن.

أمرهُ كريستيان.

زفر حاتم وهو يضعه في يمناه على أذنه، سمعا سويًّا الشوشرة تعود. أمره كريستيان أن يعود به إلى يسراه، أطاعه واجمًا. بلهجةٍ حاسمةٍ قال صديقه: "تختفي الشوشرة متى عاد إلى يسراك. حاتم؛ تفقد يدك اليمنى، وانظر ماذا ترتدي ويُسبب هذا التشويش." اضطربت ضربات قلبه وهو يسأل: "ماذا؟!، هل تقصد..."، قاطعه كريستيان: "نعم.. أحدٌ ما زرع بك آداةَ تجسس لعينةً!" شعر حاتم بسخونة الانفعال تجتاحه، نظر إلى ذراعه الأيمن قبل

أن يقول واجمًا: "لا أجد سوى سواري المعدني المغناطيسي."
"تبًا لك! أتصدق هذا الهُراء؟!" صاح كريستيان وكأنما يحتقره، سأله: "وأين تضع ساعة يدك؟" أجاب حاتم باضطرابٍ: "في يُسراي." أكَّد عليه صديقه: "وهي اليد التي بها الهاتف الآن؟." أجاب: "نعم."
أمره كريستيان: "أنزع سوارك ثم انقل الهاتف ليُمناك."
أطاعه، وشعر بالقهر وتجرُّع الخديعة بعد أن صدق ظنّ صديقه، إذ اختفت الشوشرة فعلاً. صاح به كريستيان آمرًا بحنقٍ: "أيًّا كانت وظيفة آداة التجسس تلك، يجدر بك الهرب حالاً أيها الحاذق!"
وعاد حاتم بتركيزه مع الضجيج المنبعث من محرك الحافلة التي تقله، عاود النظر إلى معصمه الخالي وهو يتساءل في نفسه بمرارة (ترى من زرع لك هذه الأداة ياحاتم؟.. مَيّ؟ أم رجال رعد؟.. أم هو الكهل صابر؟.. أم هي سناء نفسها؟!)
وعاود النظر إلى الطريق المُتسارع عبر نافذة الحافلة، وهو يمُط شفتيه بتأففٍ.

***

٨

كريستيان أشرف نبيل، في بداية العقد الخامس، أعزب، ضابطٌ سابقٌ في جهاز أمن الدولة، برزت إمكاناته في إدارة التصنت والتتبع، تم الاستغناء عن خدماته ضمن الضباط الذين تم إقصاؤهم في أعقاب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، اتجه بعدها للانعزال والتفرغ للعمل الخاص، ليُوظف كافة إمكاناته وخبراته في التجسس على حواسب الكيانات الكبرى واقتحامها، وبيع ما يتحصل عليه من معلوماتٍ لمن يدفع أكثر. أبرز المتعاملين معه حاتم فهمي؛ الصحافي مُتقصي الفضائح الأشهر في مصر والعالم العربي. يعود تعارفهما إلى أيام تَعاوُن حاتم معه إبان وجود جهاز أمن الدولة، وتركز تعاونهما بالتجسس على معارضي النظام، ومن ثم فضحهم أمام الرأي العام. وبعد إحالته للتقاعد استمر تعاون حاتم معه، ومع تزايد مكاسبه المادية؛ لم يقبل العودة للجهاز في أعقاب طلب جهاز الأمن الوطني إعادة توظيفه، مُفضَّلاً العمل الخاص.

أبرز صفاته الحذر الشديد، والحيطة الفائقة. في قضية حاتم الأخيرة،

فضَّل في البداية التنصل منها، نظرًا لاستشعاره تورط جهاتٍ ثقيلةٍ في الدولة في هذه الصور. ولكن بعد ذلك، راق له التحدي، وقرر أن يعمل ضد الجهات التي كان يعمل معها في السابق.

حينما اكتشف وجود جهاز تجسسٍ ما في سوار معصم حاتم، أيقن حينها أن ثمة جهاتٍ سياديةً ما متورطةٌ في الأمر، ومن ثم طلب من حاتم أن يعود إلى القاهرة فورًا. وبلذة الأيام الخوالي قام بتدبير بيتٍ آمنٍ لحاتم، بعد أن خضع الأخير لتفتيشٍ صارمٍ لدرجة العُريّ الكامل أمام كريستيان. بعدها شرع الشريكان في البحث الجِدّي المكثف وراء ماهية هذه الصور. حاتم من جهته أخرج كل ما في جعبته من صورٍ سابقةٍ لسميح الشريف، كان المدير التنفيذي القتيل من نجوم السهرات في العاصمة المصرية، حيث يلتقي نجوم مصر في كافة المجالات، السياسية والفنية والقضائية والاقتصادية. سهراتٌ مثل تلك لم تكن أبدًا ليُفوتها حاتم. إذ كان مَنْجَمًا لا ينفد لفضائح الصفوة المصرية. بالبحث الدقيق في أرشيف صوره، توصل حاتم إلى معلوماتٍ قيمةٍ جدًا.

كريستيان من ناحيته، قام بالربط بين محتوى صور شريكه، ومانشيتاتٍ صحفيةٍ عدة ظهرت بكثافةٍ خلال الأشهر الماضية:

"حالات اختفاء لأعضاء بشرية داخل مستشفى شهير"

"دعاوى على مستشفى استثماري تتهمه بنقل الأعضاء"

"وقائع غامضة تهدد سمعة أشهر كيان طبي في مصر"

"براءة المستشفى الشهير من القضايا المرفوعة ضدها"

وفي البيت الآمن الذي دبره له كريستيان، كان حاتم يُسلمه ملفًا يحتوي عددًا من الصور التي ربط أبطالها بين عدد من الأحداث. تفقد الضابط التقني السابق الصور على حاسوبه اللوحيّ بعينين بدتا كمثيلتيهما لدى الصقر. قال بصوتٍ عميقٍ وهو يُشير إلى إحدى الصور حيث امرأةٌ في أوائل العقد الخامس، ترتدي ثوب سهرةٍ يكشف مفاتنها بشكلٍ فجٍّ، كانت تمسك كأسًا فيما بدا من وقفتها أن السُكر قد تمكن منها، فيما يُطوق خصرها شخصٌ أنيقٌ وهو يميل عليها ليلثم صدرها المكشوف أكثره. "أهذه هي؟" سأل كريستيان. أجاب حاتم بثقةٍ ممتزجةٍ بالسخرية: "نعم، هي راقية محمد رأفت، المديرة المالية لمستشفى المستقبل الاستثماري، الأشهر في مصر"، وألقى نظرةً عابرةً على صورةٍ أخرى لها في مناسبةٍ أخرى وهي تقف وقفةً رسميةً جوار سميح الشريف، ليردف: "هي الذراع الأيمن للمدير التنفيذي سميح الشريف، تستطيع أن تقول؛ هي مستودع أسراره." قال كريستيان وهو ما زال يُقلّب في الصور: "هذه المرأة

لديها عندك الكثير من الصور الفاضحة، أو المخزية بالأحرى."
كانت عيناه مثبتتان على صورةٍ أخرى لها مع شخصٍ آخر، كانت يده تمتد لتعبث تحت تنورتها فيما هي ترجع رأسها للخلف وهي تضحك بانتشاءٍ.
انتفخت أوداج حاتم وهو يقول: "يا باشا التقاط هذه اللحظات هو صميم تخصصي." رفع كريستيان إليه عينيه الخضراوين بلون الزيتون، وهو يقول: "إذن.. مِنْ هذه البداية."
واستغرقا بعدها ساعتين كاملتين يضعان الأطر الرئيسية لخطتهما القادمة.

***

انعكس ضوء الصباح المنبعث عبر النافذة المفتوحة على زجاج المكتب رفيع الذوق ذي الطراز الحديث، الذي جلست وراءه امرأةٌ خمسينية العمر، بُنِّيَّةُ الشعر، مستطيلةُ الوجه، ممتلئةُ الشفتين، ترتدي بدلةً زيتونيةَ اللون ذاتَ تصميم شبيهٍ بمثيله لدى الرجال، وإن كانت نسائية الطراز. تمعّن ضيفها الجالس مقابلها في اللافتة الخشبية الصغيرة المطرزة بالنحاس الموضوعة فوق المكتب والتي حملت اسم "راقية محمد رأفت" وأسفلها عبارة: "المدير المالي". وبرغمه عاد ضيفها لتتسلل عيناه إلى نهديّ المديرة اللذيْن برزا عبر فتحة القميص الأبيض الحريري الذي فكت

أزراره العلوية. شعر بأنها أوشكت على مراجعة الملف الذي تطالعه، فأسرع يرتفع بعينيه إلى جاكت بدلتها الذي علقته فوق مشجبٍ معدنيٍّ على يسارها.

تنحنحت راقية وهي تنزع عنها عوينات القراءة، وتتمعن في ضيفها الذي أدخلوه إليها بدعوى أن لديه أمرٌ هامٌّ يخصّ حسابات المستشفى. كان يبدو في منتصف العقد الثالث، يرتدي بدلةً قديمة الذوق، ذا شاربٍ كثٍّ، وفكٍّ بارزٍ، وتلتهم وجهَه عويناتٌ مقعرةٌ كبيرةٌ. أغلقت الملف وأزاحته جانبًا وهي تسأله بلهجة رسمية: "أفندم.. أي خدمة؟"

بادرها ضيفها: "كيف حال زوج حضرتك أولاً؟ الأستاذ فتحي..."

لمعت عيناها بانتباهٍ، سألته: "بخير حال. هل حضرتك تعرفه؟"

قدم إليها مظروفًا مغلقًا وعاد لجلسته الخانعة وهو يقول: "أنا مجرد مِرسال لحضرتك."

عبست وهي تتناول منه المظروف، فتحته وهي تحاول إرجاء تساؤلاتها، وجدته يحوي عددًا كبيرًا من الصور الفوتوغرافية، ما إن وقعت عيناها على أولاهم؛ حتى امتقع وجهها بشدةٍ فيما تصاعدت ضربات قلبها بشكلٍ عنيفٍ، قلَّبَت الصور بسرعةٍ وقد اهتزت أعصاب يدها، لم تقوَ على مطالعة الباقي، رفعت رأسها

إليه وبوجهٍ صار بياضهُ أصفرَ هتفت به بصوتٍ متحشرجٍ مختنقٍ: "من أنت؟!"

أجاب ضيفها بأن خلع عويناته، وشاربه اللاصق، وطاقم أسنانه، ليضع كل ذلك فوق سطح مكتبها. تعرفت عليه على الفور لتهتف وهي تتراجع بمقعدها: "حاتم! أهو أنت؟!"

ابتسم لها ابتسامةً لزجةً وهو يُومئ برأسه باستكانةٍ مصطنعةٍ. وقفت وهي ترتجف انفعالاً: "هل أتيت إلى هنا لتهددني بتلك الصور؟! إنها تعود لسنوات." قال وهو يضغط على كلماته: "سنة وتسعة أشهر وبضعة أيام إن شئت الدقة، ثم من قال أنّ هذه الصور هي كل ما عندي؟!"

نظرت إليه بذهولٍ، قبل أن تنزع نفسها من جمودها لتُسارع في جمع الصور وإعادتها للمظروف. جلست وقد أطرقت بعينيها بضع دقائق لتتمالك نفسها، قالت وقد اعتدلت في مجلسها وهي تنظر إلى عينيه مباشرة: "وماذا تطلب لقاء هذا الابتزاز؟"

ترك نفسه على سجيته ينظر إلى صدرها المشدود ببجاحةٍ لم يحاول إخفاءها، تمتم: "أيَّ ابتزازٍ تقصدين؟ شخصيًا؛ لم أر في حياتي ابتزازًا أفضل مما أراه الآن."

شعرت بالتوتر بعد أن أدركت مسار نظراته، أردف هو: "سأحدثك

بصراحة، أنا لا أنتوي خراب بيتك، ولا دمار شغلك، أو سمعتك، أو أيَّ سوءٍ لا سمح الله.“

هتفت بوجهٍ ممتقعٍ: ”قل مباشرة كم تطلب؟“ قال وهو يتراجع بظهر كرسيه إلى الوراء: ”ليس مرادي المال قط، فقط بعض المعلومات.“ نظرت إليه بغير فهم، تساءلت: ”لا تريد مالاً!، وأي معلومات تريد؟ ولماذا؟.“ قال لها بأريحيةٍ: ”أنتِ تعلمين أنني صحفيٌّ كبيرٌ و...“، قاطعته وهي تجترُّ ضحكةً عصبيةً: ”وجاسوسٌ كذلك هاربٌ من الشرطة و...“، قاطعها هو هذه المرة بنبرةٍ عنيفةٍ: ”اسمعي يا مدام ابتزاز، أفضل لكِ البعد عن الحديث بهذه الطريقة، إن أردت نصيحتي؛ أنتِ لست في موضعٍ يُتيح لكِ ذلك.“

وقام من جلسته وكأنه يهمُّ بالخروج، فهتفت به بضراعةٍ: ”متأسفة أ. حاتم، أرجوك ابق وقل ما عندك.“ عاد ليجلس وهو يبتسم بظفرٍ: ”أحسنتِ.“ أسرعت تسأله مُتلطفة: ”ما هي المعلومات التي تطلبها؟“

سألها بشكلٍ مباشرٍ وهو يحدق بعينيها: ”أين تُجرون عمليات نقل الأعضاء؟“

تراجعت بقوةٍ كادت تُخِلُّ بتوازن جلستها: ”نقل أعضاء؟! من أين

أتاك ذلك؟!" رمقها باستهانةٍ مبتسمًا ابتسامة العالم ببواطن الأمور. قالت وقد اهتزت لصمته ونظرته: "أنت تعرف أننا أكبر المستشفيات الاستثمارية في مصر، ولا نتورط في أيِّ أعمالٍ غيرِ قانونيةٍ".
سمعا دويَّ سارينة إسعافٍ قادمًا من بعيدٍ، صمت حاتم للحظاتٍ قبل أن يهتف بها: "حسنًا، سأوجه السؤال بطريقةٍ أخرى."، ومال بجذعه إليها: "ألم تُلاحظي أيَّ شيءٍ مريبٍ ذي علاقةٍ بهذا الموضوع؟." قالت بسرعةٍ: "أنت تعلم أن عملي يقتصر على الحسابات و..."، كان حاتم قبل ثانيتين قد أخرج من جيب سرواله مسجلاً صوتيًّا صغيرًا، وأداره أثناء حديثها، فوجمت وجحظت عيناها وهي تستمع لمحتواه.
إذ كان عبارةً عن تأوهاتٍ لامرأة قبيل بلوغ نشوتها.
كان صوتًا لامرأةٍ؛ صوتها هي!
فاضت عيناها بالدموع بغتةً وقد تغضّنت ملامحها: "كيف سجلت ذلك يا ابن الـ..." قاطعها بأسفٍ مُصطنعٍ وهو يمُطّ شفتيه: "عيب... ملكة الابتزاز لا يصح أن تلفظ شفتاها الشهيتان هذه الألفاظ القبيحة." ثم اختلس نظرةً إلى ساعة يده قبل أن تتغير نبرة صوته إلى التهديد: "اسمعي يا راقية؛ أنا لا أملك وقتًا لمرواغتك، إما أن تخبريني بما أريد، أو أن أذهب الآن لأفعل ما أجيده تمامًا."

وأعقب قوله بأن قام عن مقعده بانفعالٍ.

هرعت إليه من وراء مكتبها، لتهتف بانهيار: "لا داعي أرجوك." وأمسكت بساعده برجاءٍ: "أنا غير متأكدة تمامًا، ولكن ثمة مكانٌ بدأ يظهر في عناوين الملفات والحسابات لديَّ كثيرًا في الأونة الأخيرة." سألها: "منذ متى؟"، أجابت وقد بدأ صوتها يتقطع ويَوْهُن من فرط البكاء: "منذ حوالي عشرة أشهر..." ثم أردفت بسرعةٍ مذعورةً: "ولكني فعلاً لا أعلم ماذا يجري هناك"، وأطرقت باكيةً بنشيجٍ وانهيارٍ. أخذها حاتم من يدها برفقٍ، وهو يضمها إليه بقوةٍ وكأنما يواسيها، بعد برهةٍ ذهب بها إلى أريكةٍ وثيرةٍ في الركن، جلسا وهو لا زال يضمها، قال: "أرجوكِ تمالكي أعصابك، وبالراحة؛ أخبريني بكل ما لديكِ."

* * *

ضغطت مَيّ مكابح سيارتها الكوبيه بتأفُّفٍ، عند إشارة المرور المجاورة لمسجد الإيمان، التي سطع ضوؤها الأحمر. برغم مكيف الهواء في السيارة شعرت بالحرارة، ربما بسبب انفعالها. ارتفع رنين هاتفها المحمول، نظرت إلى اسم المتصل ثم أجابت فورًا: "لقد تفقدت توًّا مسكن كريستيان، لم أجده، الجيران أكدوا أنه ترك الشقة منذ بضعة أيام."

جاوبها نادر على الطرف الآخر:

- لقد تفقدْتُ من ناحيتي عدة جهاتٍ أمنيةٍ؛ لم يصل أَيُّهُمْ إلى حاتم بعدُ.

- أخشى على حياته يا فندم، حاتم بهذا الشكل؛ وحيدٌ وسط أكاسرة.

- كريستيان رغم انتمائه لقسم المعلومات في أمن الدولة السابق؛ إلا أنّه إنْ كان يتعاون مع حاتم- كما نتوقع- فأظنه سيوفر له قدرًا معقولاً من الحماية.

- حاتم معه طرفُ خيطٍ، ونحن توصلنا إلى خيوطٍ أخرى. بعثورنا عليه سوف تكتمل الصورة الكلية.

وأنصتت بتركيزٍ مشوبٍ بالتوتر وهي تستمع لرد قائدها. وعندما أضاء نور الإشارةً الأخضر، كانت مَيّ تنطلق بسيارتها وقد زوّت ما بين حاجبيها بتصميمٍ.

***

٩

على ضواحي (كرداسة)، في منطقة بدت مقفرةً نوعًا، وعندما أوشك النهار أن يبلغ الضُحى، ترجّل حاتم من سيارة أجرةٍ، ليتجه نحو مبنًى ذي طابقيْن؛ خالٍ مما يُجاوره. أخرج هاتفه المحمول مُتظاهرًا بالانشغال في الحديث فيما كانت عيناه تفحصان موقع العيادة المشبوهة التي زودته بها راقية رأفت. طفق يتأمل السور الإسمنتي الذي لا يتجاوز ثلاثة أمتارٍ، تمهّل في خطواته وهو يدور مع السور ليرى ثلاثة أفرادٍ من الأمن عند البوابة الرئيسية، تظاهر بالتشويح وكأنه مندمجٌ في الحديث وهو يتجاوزهم. كانت راقية قد أخبرته عن بابٍ صغيرٍ عند زاوية السور الشرقي لا يستعمله سوى السعاة وعمال النظافة، أمامه مباشرة على ذات الرصيف؛ صندوقُ قمامةٍ كبيرٌ يُناهز المتر ونصف المتر، مخصصٌ لمخلفات المستشفيات. هرول بخفّةٍ ليقبع على يسار الباب المعدنيّ المغلق وينكمش مُنتظرًا اللحظة الموعودة.

في هذا الأثناء، في داخل البناية الطبية، كان (شوقي) عامل

النظافة يضع الكيس الأخير من المخلفات الطبية داخل الصندوق المُدَوْلَب ذي العجلات، ليدفعه بعدها بجهدٍ جهيدٍ، وهو ينزلق عبر المَنزِل الإسمنتي إلى الحديقة المُعْشِبة. وفي تمام الوقت الذي تمّ إعطاؤه لحاتم، فتح (شوقي) الباب المعدنيّ ليخرج دافعًا أمامه الصندوق المدولب، ويبدأ بعدها في تفريغ ما لديه في صندوق القمامة الكبير. ولم يُفوِّت حاتم الفرصة، فانسلّ بخفةٍ ليعبر الباب في غفلةٍ من عامل النظافة.

ركض حاتم وقلبه يخفق بقوةٍ، ولج إلى المبنى عبر بابٍ وجد بعد عبوره أنه يتوسط ممرًا طويلاً ينقسم إلى اتجاهين، لبث متحيرًا لحظةً لا يدري أَيَتّجه يُمنة أم يسارًا، وما لبث أن حسم أمره بالانعطاف يمينًا. هرول في خطواتٍ حذرةٍ، وبلا هدفٍ، متأملاً الجدارن المتشققة صفراء الطلاء، الذي تساقط معظمه. مع الهدوء المميز للمستشفيات؛ سمع وقع خطواتٍ قادمةٍ من آخر الرواق، فسارع بفتح أقرب بابٍ إليه؛ كان خشبيًّا، وجده موصدًا، جرّب الذي يليه بتوترٍ مُطّرِدٍ فوجده يستجيب له، دلف فورًا ليوصده في ذات اللحظة التي ولج فيها رجل الأمن إلى الممر.

***

للحظةٍ لم يبصر حاتم شيئًا في الغرفة الغارقة في الظلام، بعد ثوانٍ

بدأت عيناه تعتادان الرؤية، ليبصر نافذةً خشبيةً في آخر الغرفة، يتسلل منها ضوءٌ طفيفٌ للنهار. لم يشأ ضغط زر الإضاءة، تفقد المكان فوجد على مقربةٍ منه أدواتٍ وموادَّ نظافة، بضعة صناديقَ من الورق المقوّى لا يعلم محتواها، ثمة أنبوبتا غاز بوتجاز موضوعتان بجوار صندوق ملابسٍ مفتوحٍ على مصراعيه ليظهر ما بداخله من ملابس زرقاء، تشبه تلك التي كان يرتديها عامل النظافة الذي غافله حاتم منذ دقائق. زفر صحفي الفضائح وهو ينتقي الزي الأقرب لمقاسه، ومن ثم شرع بارتدائه مُتعجلاً.

خرج حاتم بملابس عمال النظافة الزرقاء، حاول أن تبدو خطواته واثقة، لم تكن لديه وجهةٌ معينةٌ في الواقع، لكنه كان يعتمد على حاسته الصحفية. فتح باب أكثر من حجرةٍ، معظمها كانت خاليةً، وتستخدم للتخزين، أثار هذا اندهاشه، فلم يجد في هذه المستشفى مريضًا واحدًا بعدُ. لمح في نهاية الرواق بابًا معدنيًّا كبيرًا يختلف عن كافة أبواب الممر الخشبية. أثار فضوله، ركض إليه عبر حذائه المطاطي، حاول فتحه فوجده موصدًا كما توقع، أثار الأمر فضوله أكثر، تلفت حوله بتوترٍ قبل أن يُخرج أداةً خاصةً من جيبه، أغمدها في رتاج الباب، ومع أول محاولة؛ استجاب له. ابتسم حاتم وهو يُدير مقبض الباب برفقٍ، ليلج إلى الداخل.

أوصد الباب بحرصٍ، ليُلاحظ من الثانية الأولى، أن شعيراته تتقلص من البرودة!

فرك حاتم كفيه باستغرابٍ، برغم الظلام شعر بأنّ ثمة ضبابًا خفيفًا يغشى المكان، تلمس طريقه إلى أقرب جدار، بحث عن مفتاح الإضاءة، فشل. أخرج هاتفه المحمول، واستعان به في البحث، عبر تفعيل إضاءته الداخلية. وجد المفتاح بعون الإضاءة الخافتة لهاتفه، رفع المفتاح الذي أصدر تكّةً خافتةً صاحبت حركته. رفع رأسه ليجد وحدات كشافات النيون الكبيرة تضيء بتتابعٍ مَهيبٍ، ليكتشف اتساع القاعة التي هو فيها.

استغرب السقف المرتفع الذي ناهز الخمسة أمتار، جالت عيناه في المكان للحظاتٍ، تقلص وجهه بعدها على الفور تشاؤمًا واشمئزازًا. لم يدرك السبب الحقيقي يقينًا، أبسبب رائحة الفورمالين القابضة التي تتضوع في المكان؟ أم بسبب جدران القاعة المكسوة ببلاطٍ أبيضَ على هيئة مربعاتٍ صغيرةٍ قديمة الذوق، شبيهةٍ بتلك المستخدمة في المراحيض العامة؟ أم بسبب تلك الثلاجة الفضية الكبيرة ذات الأدراج المتعددة التي تحتل أحد الجدران الأربعة للقاعة الواسعة الممتدة؟

(هل هذه مشرحة؟!) تساءل في نفسه وقد شعر بالانقباض، صارت

الهواجس تتدافع بقوةٍ في ذهنه.

انتبه إلى طاولاتٍ معدنيةٍ شبيهةٍ بتلك التي يُغسَّل عليها الموتى متراصّةٍ في آخر القاعة. لفت انتباهَه طاولةٌ مختلفةٌ، كان يبرز جزءٌ منها وراء دولابٍ كبيرٍ يتعدى الثلاثة أمتار. اقترب منها، وما لبث أن زوّى ما بين حاجبيه بحيرةٍ.

كانت تلك الطاولة يتراصّ فوقها نحو عشرة أوانٍ زجاجيةٍ مختلفة الأحجام، القاسم المشترك بينها ذلك البخار المتكاثف الذي يتصاعد من فوّهاتها رغم انغلاقها.

اقترب أكثر ليتبين محتوى الأواني الزجاجية، كانت ثمة أشياءٌ تسبح في سائلٍ ما، صارت رائحة الفورمالين فجّة الآن، ضاقت عيناه وهو يقترب من إحداها مُحاولاً تَبَيُّن ماهيّتها، وما يدري إلا وارتدّ إلى الوراء مصعوقًا وقد تقلصت أمعاؤه بغتةً.

إذ كان ما يسبح داخل الأواني الزجاجية أعضاءٌ.

أعضاءٌ بشريةٌ!

***

نزل الدَرجَ طبيبُ الجراحة الشاب، وفي إثره كبير الممرضين يحاول ملاحقة خطواته السريعة. نزلا إلى الدور الأرضي حيث المشرحة التي يقصدونها. كان كبير الممرضين يُناول الجراح

بعض صور الأشعة التشخيصية فيما الأخير يُطالعها باهتمام. وصلا إلى بوابة المشرحة المعدنية فأخذ الجراح الملف بين يديه فيما تفرغ كبير الممرضين لإخراج المفتاح. جعل الجراح الشاب يتفحص محتويات الملف على عجالة قبل أن يصيح بغتةً غاضبًا: "ما هذا؟! أين بقية صور الأشعة؟" وأكمل تصفح الملف مردفًا: "وأين باقي النتائج النهائية للتحاليل؟" وضمّ الملف إلى جانب خصره وهو يضغط على كلماته: "هل لا زلت متأكدًا أنك لم تنس شيئًا؟" تجمّد المفتاح في رتاج الباب بعد أن سمع كبير الممرضين زجر الطبيب الشاب، سحب المفتاح وهو يُمَسِّد شعر رأسه الرماديّ مُجيبًا بارتباكٍ: "واللهِ يا دكتور هذا ما سلموني إياه في الأعلى." عبس الطبيب في وجهه، قبل أن يدفعه زاجرًا: "اصعد معي إذن لأواجهك بهم، مسئولية ما فُقِد؛ يتعين على أحدهم تحملها." وقفلا عائديْن من حيث أتيا.

***

حال استغراق حاتم في التقاط الصور لكلِّ ما وقعت عليه عيناه دون الانتباه للجلبة في الخارج، شعر أنّ ما التقطه حتى الآن كافٍ، ترك كاميرته تتدلى على صدره فيما اكفهرّ وجهه وهو يتحول إلى الثلاجة الكبيرة ذات الأدراج الاستانلس، شعر وكأنما انفعالاتٌ سوداءُ

تعتمل داخله. واجهها وهو من التوتر في غايةٍ. هو لم ير ثلاجة حفظ موتى من قبل، ولكن إن لم تكن بهذه الهيئة؛ فكيف تكون؟

وبحزمٍ مَشوبٍ بالعصبية، دفع نفسه دفعًا لسحب أقرب أدراج الثلاجة إليه.

وحبس أنفاسه بقوةٍ.

كان الدرج ثقيلاً، فاستعان بكلتا يديه، بعد جهد استجاب له إذ انزاح ببطءٍ، ترافق ذلك مع بخارٍ باردٍ كثيفٍ.

سحبهُ حاتم إلى أقصى طاقة جرار الدرج، وقد تحجَّر لعابه مما رآه..(بسم الله الرحمن الرحيم) تمتم حاتم وعيناه تجحظان، برغم كل شيءٍ كان قد توقع أن هذا المكان يُدير أنشطةً غيرَ قانونيةٍ، ولكن الرؤية رأيَ العين؛ دائمًا لها وقعٌ مختلفٌ.

كان يُحدّق في جثة شابٍّ متجمدةٍ بالكامل.

كان مرآها مريعًا.

تجمد عقله للحظات فلم يدر ما يفعل. وجد نفسه يترك الدرج مفتوحًا ليتجه إلى درجٍ آخر، فتحهُ لتُطالعه جثةٌ نِصْفيّةٍ لامرأةٍ ما.

غالب غثيانه ليتجه إلى درجٍ ثالثٍ، سحبهُ ليجد زوجيْن من السيقان والأذرع.

هرع إلى الرابع وصدره يرتفع انفعالاً، وجد جثةً متجمدةً لصبيّةٍ

صغيرةٍ ذات ضفائر، غير كاملة الأطراف. سحب الدرج لآخر طاقته ببطءٍ، تطلّع إلى الجثة المتجمدة التي يُحيطها قماشٌ أبيضُ مخضّبٌ بدماءٍ متجمدةٍ، (الأوغاد لم يعتنوا حتى بتكفينها بإحكام.)
تمتم حاتم بمرارةٍ قلما تنتابه، تطلع إلى وجه الصبية البريء وقد راودته ذكرياتٌ طالما هرب منها.
بعد برهة من الجمود قام بإرجاع الدرج.
بغتةً بدا كما لو أنّ خاطرًا ما ومض في خاطره.
عاود جذب الدرج ليتطلع إلى وجه الصبية بإمعانٍ، تقلصت ملامحه وقد عكست انزعاجه الشديد مما خطر له.
وبيدٍ مرتجفةٍ، دسّ يده في جيوبه كما لو كان يبحث عن شيءٍ ما، قبضت أصابعه عليه بقوةٍ وهو يسحبه ببطءٍ، وقد ظهرت على قسماته نُذر التشاؤم.
نظر إلى الصورة الفوتوغرافية التي سحبها، ثم حوَّل ناظريه إلى جثة الطفلة ذات الضفائر، وما دَرى إلا وأنفاسه تتجمد فيما عكست عيناه مزيجًا من الذهول والألم.
فالجثة كانت متطابقةً مع الصورة.
صورة حفيدة عم صابر!

***

في هذا الأثناء..

كانت أقسى أمارات الهلع على وجه الصحافية سناء، وهي تختلس النظر من وراء ستائر غرفة نومها المظلمة؛ إلى سيارةٍ تقف قبالة منزلها، وقد ترجّل منها بعض الأشخاص الخطرين ذوي البدل السوداء، شارعين في اتخاذ مواقعهم حول مسكنها.

***

استند حاتم إلى أقرب الطاولات المعدنية إليه، وقد شعر بتهاوي كافة دفاعاته النفسية بغتةً. أدار بصره إلى الأوعيةِ الزجاجيةِ الحاويةِ الأعضاء البشرية المحفوظة، ثم إلى أدراج الثلاجة المفتوحة العامرة ببقايا الجثث، انتابه احساسٌ بتخاذل ساقيه عن حمله. كان وَقْعُ الذكرى التي طالما تهرّب منها تدكُّ عقله بقوةٍ الآن.

ولأول مرةٍ منذ سنوات؛ استسلم لذكرياته.

***

رأس البر- دمياط- قبل خمس سنوات:

اندفع حاتم يطيح بكل من يُقابله صاعدًا درجات الشاليه حتى لمح باب شقته المستأجرة بالدور الثاني، تقلصت نفسه مع صوت مُقرئ القرآن الكريم الذي يصدح عبر الباب المفتوح.

اقتحم المكان ليرى الصالة تعجّ بنساءٍ ورجالٍ جميعهم طُبِعَ على

ملامحهم الوجوم والعبوس. تطلع الجميع إليه بإشفاقٍ، استطاع تمييز نحيب زوجته السابقة عبر غرفة إلى يساره. هرع إليها ليقبض على منكبيها ويهزها بعنفٍ شديدٍ صارخًا: "قتلتي سمية بإهمالك! قتلتي ابنتنا الوحيدة!" سحبه الرجال بعيدًا فيما زوجته تصرخ بهستيريا: "هل تحاسبني على غرقها ولا تحاسب نفسك على هجرانك لنا بالشهور فلا نرى وجهك؟! ولأجل ماذا؟ لأجل فضائحك البغيضة."

تهاوى على أقرب مقعدٍ إليه وهو يسأل كل من حوله راجيًا باكيًا: "أين جثتها؟ أرجوكم، أريد رؤية جثتها." ولما لم يجد إجابةً هتف بهم وقدر رقّ صوته وكأنما يهذي: "إنها في التاسعة من عمرها، طولها يتجاوز المتر بقليل، نحيفةٌ بعض الشيء، و..."، ولم يجد إجابةً إلا نظراتٍ مشفقةً ووجوهًا تُطرِق إلى الأرض.

ولم يعثروا على جثتها قط، لتنضم إلى عِداد المفقودين مع الغرقى في مصيف رأس البر.

وطلّق زوجته..

وهجر هذه الذكرى وفرّ منها بالانغماس أكثر وأكثر في عمله.

وبعد سنواتٍ من نجاحه النسبي، يسوقه القدر ليكون شاهدًا على كارثةٍ مشابهةٍ؛ أبوان يعملان في الخارج لا يعلمان شيئًا عما حل

بابنتهما الوحيدة. وسينفصلان على الأرجح بعد هذه الكارثة. وسيتحمل عم صابر هذا، مسئولية هذا البلاء. ويقضي بقية سنوات حياته البائسة يجترّ آلام فقدان الحفيدة، وانفصال والديها.

وكل ذلك بسبب ماذا؟ تجّار أعضاءٍ بشريةٍ خطفوا صبيّةً بريئةً، يعلم الله كيف قتلوها، وماذا خطفوا من جسدها، ليُخلفوا كارثة تطيح بعائلةٍ كاملةٍ.

ونفض نفسه من أفكاره، وقام ببطءٍ وقد اتخذ قرارًا وقر في نفسه. وحينما شرع في معاودة التقاط الصور لكل ما وقعت عليه عيناه، كان يشعر أن ثمة شيئًا ما طرأ على شخصيته وغيَّرها... للأبد!

***

وعلى بُعد عشرات الكيلومترات...

حيث الشقة التي يُدير منها نادر تحرياته، كان نادر يتأمل صورًا فوتوغرافيةً كبيرة الحجم، جاورته مَيّ تُمعِن هي الأخرى في الصور، لفتت نظرها صورةٌ لشخصين يبدو عليهما سمت الإجرام والبلطجة، كانت الصورة لهما وهما يصعدان درجَ مدخلِ مستشفًى استثماريٍّ شهيرٍ.

سألها قائدها وهو يُشير إلى الشخصين اللذين تتطلع إليهما: "أليس هذان من ظهرا قبل ذلك مع يوفال مائير في شرم الشيخ؟." أومأت

برأسها وهي تناوله ملفًا ورقيًّا وهي تجيب: "في هذا الملف تجد كافة المعلومات عنهما، لقد نجحت في اختراق قاعدة بيانات وزارة الداخلية، ووجدتهما مصنفيْن كمسجليْن خطرًا تحت قضايا فرض سيطرة، وحيازة سلاح، وخطف."

قال وهو يرفع حاجبه الأيسر كعادته كلما تفكّر: "هل ترددهما على المستشفى الاستثماري الشهير ذاك، يُفسر الحلقة المفقودة في علاقة يوفال مائير بسميح الشريف؛ مدير المستشفى؟."

مَيّ وهي تجلس قبالته: "لقد سجلت تحرياتنا- قبل تركنا للجهاز- أن يوفال مائير يتنقّل في سيناء ويعيش فيها أكثر مما يمكث في بلده إسرائيل ذاتها." وصمتت لحظةً قبل أن تردف: "وما استطعنا جمعه بعد ذلك، أنّ علاقات هذا الرجل متشعبةً في شتى الاتجاهات، فتارةً مع مدير مستشفى استثمارٍ شهيرٍ كسميح الشريف، وتارةً مع تجّار سلاح، وتارةً مع مشايخ بدوٍ كبارٍ، وحتى إعلاميين مشهورين." نظر نادر في عينيها مباشرةً قائلاً بهدوءٍ: "لم تجيبي سؤالي بعد."

اعتدلت فأطرقت ثم قال بخفوتٍ: "هذا السؤال يا فندم؛ وما سبق مِن طَلَبِنا الاستزادة في التحريات عنه؛ هو ما أحالنا للتقاعد."

وومضت نظرة حزنٍ في عينيها انقشعت سريعًا وهي تنهض هاتفةً:

"بربط ما حصلنا عليه من معلومات، مع ما جلبه حاتم؛ لا يبدو أمامنا سوى أنّ هؤلاء متورطون في شبكةٍ دوليةٍ لتجارة الأعضاء البشرية، على أقل تقدير."

قال نادر بهدوءٍ وهو يُناولها ملفًا آخر: "هذا بافتراض أن تلك هي تجارتهم المحرمة الوحيدة."

وظهرت أعتى أمارات الانزعاج على وجه مَيّ.

***

برغم برودة الجو، كان جبين حاتم يتفصّد عرقًا وهو يزفر بقوةٍ وقد فرغ من تسجيل كلِّ ما يُريد. وضع كاميرته في جيبٍ داخليٍّ في ملابسه، ليلتفت بكامل جسده نحو ثلاث أنابيب بوتجاز كبيرة عند أقصى الركن.

وومضت بذهنه ذكرى مرأى أنبوبتيْ البوتجاز اللتين كانا في غرفة النظافة. ولمعت عيناه مع الفكرة التي برقت في عقله.

وبلا توانٍ، أطلَّ برأسه عبر فرجةٍ ضيقةٍ عبر باب قاعة المشرحة ليتأكد من خلوِّ الرواق، قبل أن يخرج مُتسللاً قافلاً إلى غرفة أدوات النظافة.

دخل حاتم إلى غرفة النظافة في آخر الممر كما يتذكر، أدار وجهه بتوترٍ باحثًا عن شيءٍ ما، هُرِع إلى صهريجٍ بلاستيكيٍّ متوسط

الحجم أسفل إفريز النافذة. فتح غطاءه ليتشممه بحذر، برغم ذلك أحرقت عينيه الرائحةُ النفاذةُ. رفع الصهريج قليلاً ليُقدِّر وزنه، بدت على وجهه أمارات الرضا وهو يندفع حيث أسطوانتيْ الغاز قبل أن يتوقف فجأةً ليلتفت إلى النافذة. تأكد من إغلاقها جيدًا قبل أن يعود للإسطوانتين ويحرّر محبسيْهما إلى أقصى مداهما فيما اليد الأخرى استلّت عدة مناديلَ ورقيةٍ وضعها فوق أنفه. تسلل بعدها على أطراف أصابعه ليفتح الباب بحذرٍ مُطلّاً على الخارج. بعد أن اطمئن؛ سحب الصهريج الثقيل معه خارجًا وهو يجرّه جرًّا.

***

عبر الظلام الدامس، إلا من شذراتٍ خافتةٍ من الضوء، تتسلل عبر نسيج الستائر، التي انفرج جزءٌ يسير منها بيد امرأة، كانت عيناها تختلسان النظر إلى الشارع بذعرٍ، بيدها الأخرى هاتفها المحمول تضعه على أذنها، ما إن سمعت صوت مجيبها حتى هتفت بصوتٍ خافتٍ مبحوحٍ: "أنجدني يا ماهر! أظن أن ثمة رجالاً خطرين يراقبون مسكني. الأخطر أنني أشك أنهم تركوا مواقعهم متجهين إليّ!"

جاءها صوت ماهر الذي حملت نبراته القلق: "أتظنين أن لهم علاقة بالموضوع إياه؟"

أجابته وقد وشى صوتها بمدى نفاد صبرها: "أكيد، ألم أخبرك

بكل شيء!"

- يستحسن إذن أن تتمالكي أعصابك وألّا تأتي بأيّ تصرفٍ غير اعتيادي، الأرجح أنهم يُراقبونك للوصول إلى حاتم، إن صدر منكِ تصرفٌ يدلّ على الذعر أو الهلع لربما انتقلت مراقبتهم لكِ إلى الأسوأ."

- معك حق، سأحاول السيطرة على جزعي قدر الإمكان.

ثم زفرت: "هو حاتم دائمًا هكذا؛ لا يأتيني منه إلى أسوأ المشكلات!"

سألها: "صحيح، أين هو الآن؟"

أجابت بسخطٍ بصوتٍ ما زالت نبراته خافتةً: "مؤكدٌ أنّه يتسكع الآن في مكان ما. أتظن مثله يتحمل المسئوليةَ؟!"

* * *

ترك حاتم الصهريج الثقيل الذي يتأرجح السائل داخله أمام أول بابٍ لاقاه في الممر، طرق عليه ثم لبث ينتظر، لمّا لم يجد مجيبًا أدار مقبض الباب. أطلّ على محتوى الحجرة التي لم تحوِ سوى بضعة كراتين من المواد الغذائية، بدا في نظرته شيءٌ من خيبة الأمل. أغلق الباب برفقٍ، ساحبًا الصهريج قبل أن يقف أمام الحجرة التالية ليُكرر ما فعله في الغرفة السابقة. أدار مقبض الباب ليجد الحجرة تغصّ بأكداسٍ من الأدوات الصحية المخزنة بغير

ترتيبٍ. أعاد غلق الباب متأففًا.
سحب الصهريج معه وهو يتجاهل الغرف التي يعرف من المرة السابقة أنها مؤصدة، التفت إلى الخلف ليرقُب برضًا السائل الذي يتسرب من الصهريج. توقف أمام حجرةٍ بدا بابها مواربًا. تسلل إليها بتوترٍ وقد ضمّ قبضتيه مُتوقعًا وجود أحدٍ داخلها، كانت حالكة الظلام، بحث عن مفتاح الإضاءة ومن ثمْ فتحه، ليجد ما جعل عيناه تتسعان عن آخرهما في ظفرٍ.
فقد كانت هذه الحجرة مخصصةً على الأرجح لتخزين أنابيب الغاز. وكان هذا أفضل ما يصبو إليه.
وعلى عجلٍ؛ سحب الصهريج البلاستيكي للداخل، مُغلِقًا الباب برفقٍ. نظر حوله متمعِّنًا في هذا العدد الكبير من الأنابيب، ثم حسم تردده ليفتح محابسهم جميعاً وقد أعاد وضع المنديل إلى أنفه.
خرج حاتم من غرفة الأسطوانات وهو يشهق بقوةٍ لينهل من الهواء، وبلا إبطاءٍ؛ شرع في معاودة سكب كامل محتويات الصهريج على الأرضية. سمع في هذه اللحظة وقع خطواتٍ قادمةٍ، انتابه الذعر، وقبل أن تشلّ الرهبة إرادته؛ أخرج عود ثقابٍ وهو يتراجع إلى مسافةٍ كافيةٍ. أشعله وقذفه بلا ترددٍ نحو السائل المُراق، الذي تلقف العود على الفور ليشتعل من فوره. ما أن تأكد حاتم أن اللهب

يتجه مباشرةً صوب غرفة الأنابيب حتى دار بجسده وركض بكلّ طاقته إلى حجرة التشريح. سمع جلبةً وراءه لكنه لم يُميزها، ما إن بلغ باب المشرحة المعدنيّ حتى دخل إليها وهو يغلق الباب وراءه بقوةٍ، وما كاد يفعل؛ حتى ارتجّت القاعة بقوةٍ تزامنت مع صوت انفجارٍ عظيم. حمى حاتم رأسه بيديه جاثيًا على ركبتيه وهو يرى الأواني الزجاجية تتراقص قبل أن تهوي مُحطّمةً بصخبٍ شديدٍ لتخرج منها الأعضاء البشرية المحفوظة.

وفي الخارج، كانت النيران يتزايد تأجُّجها، وقد تهدّم جزءٌ من جدار غرفة الأسطوانات، وتصدّعت جدرانٌ أخرى، بينما الأطباء والممرضون يهرولون في كل جانبٍ بصدمةٍ وتخبطٍ وعدم استيعاب. ومن بين دخان الحرائق ظهر بعض الرجال وهم يحملون أسطوانات إطفاء يحاولون بها السيطرة على الحريق الهائل.

نهض حاتم وقد شعر -لأول مرة في حياته- بأنه في آتونِ شيءٍ رهيبٍ، كانت الجلبة في الخارج مزيجًا من الصياح المتداخل مع هسيس النيران المتعاظم. اطمأنّ على وجود الكاميرا بأمانٍ في جيبه الداخليّ، ثم تحسّس جيبه الآخر. كان المفترض الآن أن مهمته قد انتهت بنجاح تامٍّ، فقد كشف حقيقة ما يجري في هذا المكان، وصارت لديه أدلةٌ لا بأس بها، ورُتِقتْ فجواتٌ عديدةٌ

في اللغز الذي تورط فيه، ولكن من قال إنّ حرق هذا المبنى كان مخططًا؟ وسحب حاتم الدرج الذي يحمل جثة الصبية فاطمة حفيدة العجوز صابر، تطلع بأسًى إلى وجهها البريء وقد اعتراه اللون الأزرق، ثارت ذكرياته عن ابنته الغارقة التي كبتها لأعوامٍ، فاغرورقت عيناه من فورها بدموعٍ ساخنةٍ غزيرةٍ، هذه الذكريات التي جعلته يقرر ألا يترك جثة هذه الطفلة تضيع كي لا يحترق قلبيْ أبويها مثلما جرى معه. ولكن بعد حَرْقِ هذا المكان البغيض الذي يشهد هذه العمليات الوحشية. حمل جثتها المتجمدة ليضعها فوق طاولةٍ قريبةٍ، انفطر قلبه من مرأى آثار حياكةٍ غيرِ متقنةٍ لشقٍّ طوليٍّ من منبت قفصها الصدري إلى أسفل سُرَّتها، أغمض عينيه بمرارةٍ قبل أن ينشغل بتطويقها جيدًا بقماشٍ أبيضَ مخضبٍ بالدماء الجافة؛ لم يجد غيره، ليأخذ نفسًا عميقًا بعدها ويحتمل جثتها المتصلبة الباردة فوق كتفه.

هرول بحملهِ إلى أسطوانتيْ الغاز ليفتح محبسهما عن آخره، ثم استدار ليقطع المشرحة الواسعة راكضًا ليخرج من باب المشرحة. كان الجميع منشغلاً بمحاولة إطفاء النيران، استغلّ الجلبة وزيَّه الشبيه بعمال النظافة في المكان ليخرج من الباب الجانبيّ الذي أتى منه؛ في منتصف الرواق.

كان حاتم قد قطع الحديقة المُعْشِبة ليخرج من الباب المعدنيّ الصغير عند زاوية السور الشرقيّ، في ذات اللحظة التي ارتجّ فيها مبنى العيادة بانفجارَيْن قويَّيْن متتابعيْن.

وواصل حاتم خطواته بذات الوتيرة دون أن يبدو عليه أدنى تأثرٍ بالإنفجارات، إلا من جثةٍ باردةٍ فوق كتفه.

ودموعٍ ساخنةٍ تلهب مقلتيه.

❋ ❋ ❋

١٠

بينما توشك الشمس على الغروب، وفوق أرض ترابيّةٍ غير مستوية، كان جمعٌ قليلٌ من الناس متّشحون بالسواد، يلتفّون حول قبر رخاميٍّ يُناهز المترين طولاً، وقد أطرقوا بخشوعٍ ما بين ذاهلٍ، وبَكّاءٍ، ومُشفِقٍ. ووسط هؤلاء كان العجوز صابر جالسًا فوق دكّةٍ إسمنتيةٍ تقابل القبر وقد تقوّس ظهره فيما تغضّنت ملامحه وهو لا يكف عن البكاء والتحسر بصوتٍ خافتٍ غير مسموعٍ.

خرج عُمّال الدفن في هذه اللحظة من المقبرة واجمين ليُلوحوا للحضور أنْ قد تم دفن الجثة. تعالت الشهقات وارتفعت وتيرة النحيب مع صعود أحد الأئمة الشبان إلى الدكة الإسمنتية ليخطب في الحضور داعيًا للطفلة المتوفاة بضراعةٍ، فيما يؤمِّن المتواجدون على الدعاء بتأثُّرٍ وحرارةٍ. اخترق الجموع نادر بملامحَ جامدةٍ حزينةٍ في حُلّةٍ سوداءَ، فيما توارت مَيّ وقد ظهر عليها التأثر الشديد وهي تتابع عم صابر الباكي وقد خذلته ساقاه عن النهوض، ليهرع إليه أبويْ الصبية وحاتم لمساعدته. وضع نادر يده فوق كتف حاتم يواسيه، ليُكفكف الأخير العبرات عن عيناه الذابلتان، في الوقت الذي كانت مَيّ تحتوي كفّه برفقٍ.

***

١١

أصغى سائق الحافلة بتَمَلْمُلٍ إلى صوت الفيلم المعروض على الشاشة، والذي يسمعه للمرة المئة، قبل أن يُحوِّل جلَّ تركيزه إلى الطريق مُتمنِّيًا لو يضع سدادتيْن في أذنه لتنقذه من هذا الملل.

وفي الخلف، كان حاتم يَفْرِدُ جريدةً وعيناه معلقتان بالعنوان الرئيسي:

ماس كهربائي يأتي بالكامل على مبنى عيادة غير مرخصة

وجد نفسه يُغمغم مُتهكمًا: "يا أولاد الكلب!"

انتبهت لعبارته فتاةٌ حسناءُ جالسةٌ بجواره، لم تتبين جيدًا عبارته، إذ كانت تستمع إلى أغانٍ عبر سماعتيْن دقيقتيْن موصلتيْن بهاتفها المحمول، خلعت سماعتيْها وهي تلتفت إليه: "حضرتك بتكلمني؟" تطلع حاتم إلى جمالها، قبل أيامٍ لم يكن ليُفَوِّت هذه الفرصة لجذب أواصر الحديث معها، ولكنه يشعر الآن بأن ثمة شيئًا تغيّر داخله. شيئًا جعله يكتفي بأن يلوح لها بلا اكتراثٍ أنْ لا شيء. عادت تسأله: "كم أمامنا حتى نصل العريش؟"، نظر إلى ساعة يده: "ساعة وربع على الأكثر." وأشاح بوجهه ليرمق الطريق

الصحرواي عبر النافذة. عاد بوجهه ليجد الفتاة تتمعن في صفحة الجريدة التي بيده، لاحظت نظرته فهتفت: "هذه الحادثة. حريق العيادة غير المرخصة، لقد قرأت عنها منذ أيام." ثم قرأت سريعًا تاريخ الجريدة لتهتف بدهشةٍ: "أوه! أنت تقرأ جريدةً قديمةً!"
عقَّب بتهكُّم مرير: "ليس إلى هذه الدرجة، إنها ثلاثةُ أيام لا أكثر."
جفلت الفتاة أمام تهكُّم حاتم الذي بدا أنه صدمها، فأعادت السماعتين إلى أذنيها، فيما عاد حاتم ليرمق عنوان الجريدة الرئيسي مرةً أخرى، وقد مال برأسه للوراء شاردًا.
وطافت بذاكرته مشاهدُ قاسيةٌ أثناء تواجده في قاعة المشرحة.
تذكر كيف فتح كافة أدراج ثلاجة الموتى.
تذكر المناظر المريعة لجثث أفارقةٍ وقد نُزِعَت أعينهم، وأخرين تدلَّت أمعاؤهم.
لقد سجل كل ذلك بكاميرته، وإن لم يفهم، حتى أثار فضولَه في قاعة التشريح دولابٌ معدنيٌّ مُغلقٌ يعتليه الصدأ، نزع القفل عبر أسطوانة إطفاء هوى بها عليه.
وهالهُ كَمُّ الملفات والأوراق التي وجدها في داخله، بحث فيها بسرعةٍ لتستوقفه جملةٌ رآها متكررةً في أكثر من ورقةٍ.
كانت الجملة، **"قرية المهدية- رفح."**

تذكر كيف طوى الأوراق وأودعها في جيبٍ كبيرٍ في حُلّة النظافة التي يرتديها.

وانتزعه من ذكرياته ميل الفتاة بثقلها عليه، إلتفت إليها متسائلاً فوجدها مالت إلى كتفه بعد أن غطّت في نوم عميق. أعادها برفقٍ لتنام باتّزانٍ فوق مقعدها. اعتدل ليُخرج نُسخًا ضوئيةً لبعض الأوراق. تعلقت عيناه بأحد السطور كان يحمل عنوانًا مبهمًا... "قرية المهدية."

***

تنقّلت عينا مَيّ بين ثلاثة شاشاتٍ حاسوبيةٍ كبيرةٍ فوق طاولةٍ نصف دائرية بمقر نادر، شعرت باقتراب قائدها ليتخذ مقعدًا جوارها وفي يده عدة صورٍ ضوئيةٍ من ذات الأوراق التي اقتنصها حاتم من قاعة ثلاجة حفظ الموتى. وضع نادر الأوراق فوق الطاولة، هتفت به مَيّ وهي تُشير إلى الشاشة الوسطى: "هذه الصور بالذات، لو تم نشرها، لانقلبت الدنيا"، كانت تشير إلى الصور التي التقطها حاتم من داخل المشرحة لجثث أفارقة منزوعي الأعين. قال نادر وهو يُغلق ملف الصور: "سيكون إن شاء الله، ولكن النشر سيكون بعد نجاح حاتم في إتمام مهمته." هتفت وهي تتراجع في مقعدها:

– هل تظنه قادرًا على الوصول والتعامل مع عبد القادر السيناوي؟

- لا تقلقي عليه، عبد القادر شابٌّ وطنيٌّ، وعائلته تتعاون مع الجهاز منذ زمن، وما أكثر ما قدمته من خدماتٍ جليلةٍ للوطن.

وصمت برهة قبل أن يردف:

- ولكن للأسف؛ ما أكثر من يستحقون التكريم، ولا يجدونه!

قالت بعدم اكتراثٍ مُصطنعٍ:

- ولكن الأوضاع الآن في سيناء في فوضى شاملةٍ، ألم يكن من الأجدى أن أذهب معه؟

- كلُّ شيءٍ وله أوانٌ، ولا تنسَي أن مائير له عيونٌ في كافة أنحاء سيناء، ولو علم بوجودك هناك لأدرك فورًا أنك موجودة لأجله. وهو لم ينسَ بعد ما فعلتِه به قبل أن يُخرجونا من الجهاز.

- سيادتك تعلم أنني لو أردت التنكر لما تعرفت عليّ أختي ذاتها.

- أعلم يا مَيّ، لكن في الوقت المناسب ستكونين هناك.

ولاح طيف ابتسامةٍ غامضةٍ فوق شفتيه وهو يردف: "ولن تكوني وحدك."

***

تأمل صمدي محمد الوحش، رجل الصناعة وعضو مجلس الشعب الأشهر، النقوش الديكورية رفيعة الذوق التي تزين كامل جدران حجرة د. رؤوف رئيس مجلس إدارة مستشفى الخليج الاستثماري. رغم أنها ليست المرة الأولى التي يأتي فيها إلى هذا

المكتب، إلا أنه في كلِّ مرةٍ يراها بالانبهار نفسه. اعتدل في جلسته محاولاً شد عضلات معدته قدر المستطاع خجلاً من كرشه المتدلي، عندما أتت لمياء الخشاب؛ الإعلامية الشهيرة، لتجلس جواره على الأريكة الوثيرة. اختلس النظر إلى ساقيها الوضّاءتيْن حتى وصل إلى التنورة التي بالكاد تصل إلى ركبتيها. انتبه إلى تنحنُح د. رؤوف، الجراح المشهور عالميًا، الذي جاوز الستين، والذي دار ليجلس إلى مكتبه وهو يقول باقتضابٍ: "أشكركم على حضوركم السريع."

وضعت لمياء ساقًا فوق أخرى قائلةً بتوترٍ: "لقد كنت في مهمة عملٍ بأبو ظبي، وقطعتها فور اتصالك." أمعن د. رؤوف النظر إليهما بعينيه الرماديتين قبل أن يلج إلى صلب الموضوع بنبرةٍ حاسمةٍ: "مبنانا الذي احترق منذ أيامٍ؛ يستحيل أن يكون قد احترق فقط بسبب الإهمال." بنفاد صبرٍ بادرهُ صمدي الوحش هاتفًا بلهجته الصعيدية: "قل لنا رؤيتك مباشرةً يا دكتور، أعصابنا متوترةٌ كفاية!"

أشعلت لمياء سيجارةً وهي تهتف بعصبيةٍ: "لحسن الحظ أن الإعلام لم يتوقف كثيرًا أمام هذه الحادثة." ضرب صمدي بكفه الكبيرة على ركبته قائلاً: "يا جماعة ما دام الورق الخاص بالعيادة التي احترقت لا يضمّ أيًّا من أسمائنا، فلماذا هذا القلق؟"

التفتَتْ إليه لمياء: "يا صمدي بِكْ، إفهم، كلنا في مراكزَ مرموقةٍ، والأوضاع الجديدة لم تستتب لصالحنا إلى الآن. نعم نحن لنا صلاتٌ موثوقةٌ بكثيرٍ من مراكز الدولة، ولكن القضاء بالذات لم يَنْصَعْ لنا بالكامل بعد!"

قال د. رؤوف بنبرةٍ هادئةٍ: "في هذه البلد؛ الإشاعة لها ذات وقع الحقيقة بالضبط، لا يهتم أحد بالتثبت أو التحقيق، فما دامت قد وافقت هواه؛ فهي قطعًا صحيحةٌ!"

وافقته لمياء: "نحن أعداؤنا كثيرون، خاصةً وأنّ نَجْمَنا يصعد باطّراد، وهذا ما أغضب كثيرين من حلفاء الأمس، لذا مجرد تلميحٍ بأنّ لنا علاقةً بما كان يجري في العيادة المحروقة، كفيلٌ بأن يسارعوا بالمزايدة علينا، ونهش لحومنا."

شحب وجه صمدي: "والحل يا جماعة؟." أجابت لمياء وهي تنظر لدكتور رؤوف: "من ناحيتي قمت مسبقًا بتجنيد كل من يدينون لي بالولاء في الصحف والوكالات بالتقصي عن أي خبرٍ بهذا الشأن، أو أيِّ تحرياتٍ، أو نيّةٍ بالنشر في هذا الموضوع." تركَ د. رؤوف مقعده وهو يقول: "جميلٌ، ونحن من ناحيتنا يتعين علينا كذلك تجميد كافة أنشطتنا في هذا الشأن بدءًا من هذه اللحظة"، ووجّه حديثه لصمدي الذي هبّ واقفًا على الفور: "وأنت يا صمدي،

عليك توقيف كافة الكشافة الخاصين بك مؤقتًا، لا نريد البحث عن أيِّ حالاتٍ لتجارة الأعضاء البشرية، لا بيع ولا شراء." أومأ له صمدي وقد تصبب عرقًا. التفتَ د. رؤوف إلى لمياء: "إعلاميتنا المميزة عليها البحث عن موضوعٍ جدليٍّ نُلهي به الناس، قطعًا لن تعدمي وسيلةً، أنت الأستاذة في هذا المجال."

ارتسمت ابتسامةٌ ساخرةٌ باهتةٌ فوق شفتيها. وشبك كفيْه وراء ظهره وهو يردف بشرودٍ: "ونكْمُن هكذا لفترةٍ، عسى أن ينجلي المخبوء في باطن الأيام."

❋❋❋

لم ينتظر حاتم طويلاً على جانب الطريق وهو يحمل الحقيبة الرياضية فوق ظهره، إذ سرعان ما توقفت له سيارة أجرةٍ عتيقةٍ من طراز مرسيدس سبعة رُكّاب، كان في السيارة نحو خمسة ركاب.

قال حاتم للسائق السيناوي وهو ينحشر بينهم: "قرية المهدية."

وعند مدخل القرية، قرب رفح المصرية، نزل حاتم من السيارة وهو يتطلع إلى القرية بانتباهٍ. استوقف أحدَ الفتيان ليسأله عن عنوانٍ مدوّنٍ في ورقة، تطلع الفتى إليها قبل أن يقول ببساطةٍ: "هذا منزل عائلة النواهية، تعال معي إذ أعمل في أرضٍ تجاوره." استمهله حاتم: "ولكنّ الاسم بالورقة عبد القادر محمد الناهي..." قاطعة

الفتى بضجرٍ: "قلت لك؛ هذا منزل عائلة النواهية!" هزّ حاتم كتفيه بتسليمٍ ماضيًا معه.

مضى به الفتى إلى أسواقٍ بدويةٍ للصناعات اليدوية، مرّا بين محلاتٍ متجاورةٍ لبيع موادِّ العطارة حيث استقبلتهم الروائح النفاذة المميزة، قطعا بعدها طريقًا بدا كسوقٍ صغيرةٍ لبيع الأغنام والماعز، مرّا بالعديد من البيوت المتهدمة المنهارة، بَدَتْ مُقفرةً بشكلٍ كئيبٍ، عند منعطفٍ قريبٍ أوقفه الفتى أمام بيتٍ من دورٍ واحدٍ، جميعه من الطوب الأحمر يتخلله الملاط الرماديّ الجافّ, هتف به بصوتٍ مرتفع بتلقائيةٍ: "هذا هو بيت النواهية، مَسَّاك الله بالخير"، ومضى لحالِ سبيله مهرولاً.

صعد حاتم درجةً إسمنيةً عاليةً ليصل إلى بابٍ خشبيٍّ عالٍ يُناهز الثلاثة أمتار، وجد حلقةً نحاسيةً على الباب، ووجد مفتاحَ جرسٍ على الجانب، راق له استعمال الحلقة كمطرقةٍ أكثر، فاستعملها ثلاثَ مراتٍ ليجد صوتها أعلى مما توقع. بعد برهةٍ قصيرةٍ فتحت له امرأةٌ عجوزٌ كست وجهها التجاعيد، رمقته بتساؤلٍ، قدَّم لها بطاقةً ورقيةً فاخرة الطباعة دُوِّن عليها:

"نادر الناجي- جهاز الاستصلاح والتعمير"

تناولت منه البطاقة دون أيِّ تعبيرٍ يُذكر، واغلقت الباب وهي تمتم:

"لا تؤاخذنا." بعد دقيقةٍ انفتح الباب على مصراعيه ليطلَّ شابٌّ قمحيٌّ نحيلٌ بملابسَ بدويةٍ وفي يده البطاقة، رحب بحاتم متهللاً: "يا هلا بأهل الحبائب."

***

جال حاتم بعينيه في الحجرة البسيطة المؤثثة على الطراز البدوي، أجلسه عبد القادر إلى أريكةٍ خشبيةٍ بطول الجدار يُمثل الحائط ظهرها. اختلس نظرةً إلى الباب الموصد عليهما. جلس إلى الحشية المريحة وعبد القادر يهتف به بترحابٍ: "لا ريب أنك مرهقٌ بسبب السفر، سأتركك تستريح ها الحين، وباكر بمشيئة الله ننفذ طلبات نادر بك." كانت الحجرة يأتيها من مكانٍ ما بخورٌ برائحة العود، استوقفه حاتم: "تمهل يا أخي، لدي عنوانٌ هنا أريد سؤالك عنـ..." قاطعه عبد القادر مُلوِّحًا بكفه وهو يُغادر الغرفة: "أعلم كل ما لديك، نادر بك أوضح لي كل شيء. لا تشغل بالك." وأغلق الباب برفقٍ.

وأطرق حاتم واجمًا وقد شردت عيناه في السجادة اليدوية ذات المربعات والمثلثات المتداخلة.

ومع انبلاج الفجر، كان حاتم في المقعد الخلفي لسيارةٍ قديمة الطراز، ولكنها قويةٌ، وفي الأمام عبد القادر، وجواره رجلٌ أسمرُ

داكنُ البشرة، قويُّ البنيان يعتمر كعبد القادر الوشاحَ السيناوي.

استمع حاتم بسأمٍ إلى غناءٍ ينبعث من مذياع السيارة أشبه بالمواويل البدوية، ولكنه لم يميز من كلماته الكثير.

مضت نصف ساعة لم يرَ فيها حاتم غير الرمال، فيما الجبال تطلّ باهتةً من بعيد، اكتمل قرص الشمس في السماء الصافية ليشعر حاتم بالحرارة. استرخى في جلسته مُتململاً، لمح الرجلَ الأسمر يرفع زمزميةً يروي بها ظمأه، بادره حاتم: "ناولني الزمزمية بعدك من فضلك." أغلق الرجل الزمزية بإحكامٍ، دون أن يلتفت إليه. هتف به حاتم باستغرابٍ: "حبيبي، أسألكَ الماء!"، أعاد الأسمر الزمزمية إلى جانب الباب بلا اكتراثٍ. وَكَزَ حاتم كتف عبد القادر: "زميلك هذا؛ هل يكن لي الضغينة؟!"، أخفض عبد القادر من صوت المذياع وهو يسأل: "لا تؤاخذني، ماذا قلت؟." أعاد حاتم عبارته، فهتف به مُحدثه: "يا أخي، عثمان هذا أصم، ما يسمع ولا يتكلم." حَدّق حاتم إلى الرجل الأسمر الذي بدا منتبهًا إلى الطريق، دمدم: "لا يبدو عليه أنه..."، وقطع عبارته: "حسنًا، أريد أن أشرب لو كنت قد لاحظت." ناوله عبد القادر زمزميةً أخرى من بين أقدامه.

قال حاتم وهو يتجرع منها: "هل تثق في عثمان هذا للدرجة التي

تصطحبه فيها معنا؟." أجابه عبد القادر: "اطمئن، عثمان هذا هو من دلّنا على هذا العنوان من الأساس."

غادر عثمان السيارة بعد أن وصلا إلى المكان أخيرًا، بدت في عينيه نظرةٌ متحفظةٌ، وهو يفتح صندوق السيارة الخلفيّ ليتناول معولاً وينطلق به بخطواتٍ واسعةٍ نحو بقعةٍ ما. زفر حاتم وهو يراقبه، كان يمطّ جسده كأنما يمارس تمارين الإطالة بعد أن أعياه مقعد السيارة غير المريح. هتف به عبد القادر وهو يُغالب ذرات الرمال التي تنقر وجهه: "أنت أول من يُصوّر هذا المكان." مطّ حاتم شفتيه: "وهل يوجد هنا ما يستحق التصوير؟!"، ابتسم عبد القادر ابتسامةً غامضةً، وهو يرقب حاتم يخرج كاميرته وينظف عدستها. أشار إليه وهو يتحرك ناحية مسار عثمان: "هلمّ معنا، من هذا الاتجاه." تبعه حاتم وقد لاحظ لأول مرةٍ أنه يحمل سلاحًا آليًا. شعر بالجهد وقدماه تغوصان في الرمال، ولكنه ثابر وراءهما، حيث عثمان الذي يتقدمهما بمسافة، منهمكًا في الحفر بمعوله، حتى أطلق بغتةً صيحةً عاليةً ممجوجةً. هرول عبد القادر ليطَّلع على ما وصل إليه، وما لبث أن أشاح بوجهه بضيقٍ. وصل إليهما حاتم وهو يلهث، استغرب التعبيرات العابسة على وجهيهما، تقدم حيث الحفرة التي احتفرها عثمان ليمدّ عنقه بتساؤلٍ، وما إنْ رأى

محتوى الحفرة حتى ارتدّ إلى الوراء وقد صعقه ما رآه.

***

في الصباح الباكر، توقفت سيارة ماهر؛ رئيس قسم الحوادث، أمام بوابة العمارة التي تقطن بها سناء. أبطل مُحرك سيارته ولبث ينتظر، ألقى نظرةً سريعةً على المدخل الخالي قبل أن يستلّ زجاجة عطره الخاص من جيب الباب، لينثر على نفسه نثرةً سريعةً للمرة الثالثة، سمع وقع كعبٍ نسائيٍّ فأودع زجاجة العطر مكانها متعجلاً وهو يلتفت ناحية مدخل البناية. رأى سناء تخطر إليه وهي تلوح مبتسمةً. خفق قلبه وهو يُشير إليها. ركبت بجواره لتبادره وكأنما تعتذر: "لا يعقل أن تتعب نفسك يوميًا بهذا الشكل لترافقني في الذهاب والإياب." قال لها وهو يُدير المحرك: "أعلم أن كاهلك ينوء بحِملٍ ثقيلٍ، فلا أريد أن تحمليه وحدك، كذلك لا أريد لمن يُراقبونك أن يظنوا أنكِ بمفردك."

أطرقت وعلى شفتيها ابتسامةٌ حملت مزيجًا من الحياء والإعجاب. وحينما انطلقت سيارة ماهر، كان رجلان يرتديان حُلَلاً سوداء، وعلى وجهيهما عويناتٌ شمسيةٌ داكنةٌ، يجلسان داخل سيارتهما ذات الدفع الرباعي، على الناصية المواجهة لمدخل البناية، يراقبونهما بملامحَ جامدةٍ، وقد سارع أحدهما بإجراء مكالمةٍ

هاتفيةٍ إلى جهة ما.

***

تراجع حاتم وقد صعقه المشهد المهول، وما شعر إلا وهو ينزوي ليفرغ ما في جوفه تقزُّزًا. زوّى عبد القادر ما بين حاجبيه ليخطو حيث حاتم. أشار له الأخير كي يتوقف بحِدَّةٍ، بصق حاتم وهو يمسح فاه بمنديلٍ ورقيٍّ: "لحسن الحظ لم نتناول فطورنا، لا شيء في معدتي سوى عصارةٍ صفراءَ." قال له عبد القادر: "ظننت أنك رأيت شيئًا مثل ذلك من قبل." تركه حاتم عابسًا ليقترب من الحفرة وليُلقي نظرةً أخرى على محتواها. جال ببصره في الجثث المتحللة لأفارقةٍ تدلت أمعاؤهم خارج بطونهم، وآخرين منزوعي الأعين، كان ما تبقّى من وجوههم يحكي انطباعًا بأن أرواحهم عادت لبارئها وهُم يُعانون أقسى درجات الألم. حبس أنفاسه برهةً تجنبًا للرائحة الشنيعة، قال لعبد القادر: "ما رأيته في ثلاجة الموتى كان لجثثٍ متجمدةٍ، وليست متحللةً بهذا الشكل، ولا هذه الكثافة." وعبس وهو ينظر إلى الرمال قبل أن يردف مُحتدًا: "ولمَ تُعامل جثثهم بهذه الهمجية." اختلس عبد القادر نظرةً إلى عثمان الذي وقف وقفةً جامدةً كتمثالٍ جوار الحفرة كأنه يحرسها، اقترب من الصحفي ليقول وفي نبرته توترٌ: "أعلم أن المنظر غير إنسانيٍّ،

ولكن ما في وقت، إن كنت تريد تصوير هذه الوقائع عليك أن تُسارع بذلك، فهذه منطقةٌ محظورةٌ." رفع حاتم إليه وجهه وقد تبدّت فيه المُعاناة: "إذن، ما وجدته في الورق في قاعة التشريح؛ كان صحيحًا."

وتركه ليتجه إلى الجثث المقبورة ليشرع فيما أتى من أجله.

وفيما كان عثمان منهمكًا بإزالة التراب عن مقبرةٍ جديدةٍ، توقف حاتم عن التصوير ليسأل بحيرةٍ: "ترى ما الذى أدّى بهؤلاء الأفارقة لهذه النهاية؟." صمت عبد القادر برهةً قبل أن يُجيب: "أتمّ عملك أولاً، وحالما نعود؛ ستجد إجاباتٍ لكلِّ ما يدور ببالك." رفع حاتم الكاميرا المدلاة في عنقه، ليشرع في استكمال التصوير بوجهٍ كساه الوجوم.

***

ظلامٌ مشوبٌ بدفقاتٍ مستقيمةٍ من ضوءٍ باهتٍ تسلل عبر فرجات النافذة الخشبية المغلقة. وفي ركن الغرفة شبه المظلمة، كان ثمة شبحٌ لامرأةٍ عظيمة الجسد، بدينةٍ بإفراط، ترتدي قميصًا منزليًا، انسدل على قمته شعرها بغير عنايةٍ. قبعت كعادتها وقت الظهيرة تقرض بعضًا من الكحك المثقل بالسمن، مع كوبٍ من الشاي الثقيل. كانت شاردةً ترمق صورةً مؤطرةً لوالديها الراحليْن وقد

توسطتهما شقيقتها الصغرى، وهي..

وجفل قلبها مع مذاق المرارة التي أفعمت حلقها، لم تدرِ حقيقةً؛ هل المرارة بسبب توافق هذا اليوم مع ذكرى مرور ثماني سنواتٍ على وفاة والديها غرقًا في عبَّارة السلام المنكوبة؟ أم بسبب شقيقتها الصغرى التي صارت لها بعد الحادث بمثابة الأم والأب، اعتنت بها حتى فاتها أزهى مواقيت نضوج أنوثتها، إلى أن صارت كما هي الآن، كومةً من الدهون والشحوم منزويةً في ركن المنزل، عمرها وفقًا لأوراقها الثبوتية اثنان وثلاثون عامًا، ووفقًا لمن يراها تخطّت الأربعين على أقل تقديرٍ.

وعضّت على شفتها السفلى بمرارةٍ وهي تمعن النظر إلى صورة شقيقتها الصغرى التي تصغرها بسبع سنواتٍ.

وفار الغضب في قلبها.

الآن صارت جذابةً، رياضية القوام، تعمل مدربةً بإحدى صالات اللياقة البدنية. باتت تنفق على المنزل؛ برغم الرصيد العامر في المصرف الذي تركه لهما والديْها الراحليْن، والذي لم ينضب نصفه رغم مرور كل هذه السنوات. ولكن، هل يُبيح لها ذلك أن تخرج وتعود كيفما تشاء بلا رابطٍ ولا سائلٍ؟ هل يصوغ لها ذلك ترك شقيقتها الكبرى وحيدةً أغلب فترات اليوم، تقاسي العزلة والصمت؟

أخرجها من أفكارها سماع المفتاح يدور في رتاج الباب، ترافق مع سماع رنّ الجرس بالطريقة المميزة لأختها الصغرى، (لماذا أتت مبكرًا؟ الظهيرة ليست ميعاد أَوْبَتِها) فكرت وهي تستجمع قواها للنهوض، وقبل أن تنجح وجدت شقيقتها الصغرى تدخل إليها متهللةً: "كيف حالك يا دلال؟ مالكِ تجلسين في الظلمة هكذا؟"، وأعقبت قولها بفتح زر الإضاءة. عبست دلال وهي تقبض بأصابعها السمينة على كوب الشاي الفارغ إلا من الثُّمالة، قالت: "لقد عُدتِ في غير ميعادك يا مَيّ؛ على غير العادة."

ذهبت مَيّ إلى صوان ملابسها مباشرةً، سحبت من أعلاه حقيبة سفرٍ متوسطة الحجم، وشرعت في وضع بعضٍ من ملابسها وهي تجيب: "معك حق، ولكن طرأ طارئٌ." تابعتها شقيقتها الكبرى وهي تضع ملابسها باستنكارٍ، صاحت بها: "ألا تكترثين بمن تعيش معك وتخبرينها بما تفعلين؟!"

توقفت مَيّ عن وضع الملابس وتجمدت نظرتها. هي تعلم مدى حساسية أختها بعد أن استفحلت بدانتها وظنّت بفوات قطار الزواج، ولكن ماذا عساها تفعل معها، هي تُقدِّر تفرُّغها لها، ودائمًا تُذكِّر نفسها بأهمية محادثتها برفقٍ، ولكن، يا للعجب، من بين جميع أهل الأرض، لا يوجد من هو أقدر على استفزازها أكثر من دلال.

لذا لاذت بالصمت برهةً قبل أن تلتفت إليها بهدوءٍ: "مركز اللياقة البدنية الذي أعمل به سيفتتح فرعًا جديدًا في الإسكندرية، وبصفتي كبيرة المدربات يتعين عليّ تدريب الجدد في الفرع الجديد لبعض الوقت." وتأملت النظرة المستنكرة في وجه دلال لتُسارع: "لن أستغرق بإذن الله أكثر من خمسة أيام، وستجدينني أمامك."

بدا على ملامح شقيقتها الكبرى أنها ستنفجر فيها، ولكنها زمَّت شفتيها، وأدارت وجهها للناحية الأخرى قبل أن تقول بصوتٍ متهدجٍ آسفٍ: "لو كان والدانا على قيد الحياة، لما جرؤتِ على المبيتِ خارج المنزل بهذا الشكل، كل فترةٍ وأخرى."

فارت الدماء في وجه مَيّ ليكتسب حمرةً قانيةً وقد أدركت ما تروم إليه شقيقتها، شعرت بالإهانة، صاحت وقد بدأ انفعالها يتصاعد: "هل تدركين خطورة ما تلمِّحين إليه؟!"، التفتت إليها دلال وقد اتسعت عيناها بشراسةٍ: "هل تظنينني نائمة على أذنيّ؟! تخرجين وتعودين في مواعيدَ غير منتظمةٍ، ملابسك التي أغسلها لكِ لا تحوي عرقًا حتى. أيّة صالة تدريب هذه التي لا تتعرّقين فيها؟! أم تظنين أنني لا أرى ذلك الرجل الخمسيني الذي بعمر والدك الراحل، والذي يوصلك أحيانًا إلى باب مسكننا، دون مراعاة خصوصية وضعنا، أو وضعي أنا على الأقل." وتفجّرت دموعها

بغتةً بغزارةٍ وملامحها تتقلص باكيةً: "لقد ذهب نصيبي في الزواج بسببك، والآن تقضين على البقية الباقية من أملي بتشويه سُمعتنا."
وانكفأت بوجهها على الطاولة المغطاة بالمشمع الرخيص لتنتابها نوبة بكاءٍ حادةٍ مصحوبةٍ بنشيجٍ عالٍ متهدجٍ كالأنين.
جفلت مَيّ وقد تجمدت كليًا أمام صدمة كلمات شقيقتها، لم تدر كم مر بها من الزمن على حالتها هذه، فكرت في أن تصرخ، أن تهاجم، أن تجرح شقيقتها، أن تنقضّ عليها وترفع رأسها لتردّ عليها بأقسى الكلمات.
ولكنها وجدت نفسها تقترب منها ببطءٍ، لتطوِّق كتفيها بذراعيها، وتضع وجنتها على رأسها لتقبِّله، ثم تربِّت عليها وقد سالت دموعها غزيرةً هي الأخرى، بصمتٍ وسكونٍ.

***

برغم الجو البارد نوعًا ما في هذا التوقيت من الليل، إلا أن حاتمًا شعر بالانتعاش وهو يجلس إلى الأريكة، فوق سطح بيت عبد القادر، ينتظر بحبورٍ الشاي الساخن الذي يعدّه عثمان. انشغل بالتطلع إلى مشهد السماء المهيب المرصعة بالنجوم، قطع استغراقه قدوم عثمان ليقدم الشاي. جلس بمواجهته عبد القادر في هذه اللحظة بعد أن أنهى مكالمةً خاصةً. أسرع حاتم ليرتشف

رشفةً من الشاي الساخن، وجده يعوزه بعض السكر، هتف في عثمان: "الشاي بحاجة لمعلقتين إضافيتين." أعطاه عثمان ظهره ليعود إلى ركن السطح وكأنه لا يكترث. شعر حاتم بالمهانة، كاد يصيح مُكررًا طلبه إلى أن أمسك بغتةً وقد لانت ملامحه. خاطب عبد القادر المُنشغل بهاتفه المحمول: "يا أخي لم أعتَدْ بعد على صمم عثمان." ابتسم عبد القادر ابتسامةً غامضةً وهو يختلس النظر إلى عثمان المنهمك في ترتيب مواد الشرب. ألقى نظرةً على طاولة الشاي، رفع عقيرته: "السكر الدايت يا عثمان." علق حاتم مُداعبًا: "وأنا أتساءل عن سرّ نحافتك."

أتى عثمان ليضع أكياس السكر الدايت. هتف به عبد القادر: "وقدرٌ من السكر لأجل حاتم من فضلك." انصرف عثمان ليُلبي الأمر بهدوءٍ. جفل حاتم فجأةً ليتبادل النظر بينهما قبل أن يقول مندهشًا: "ماذا يجري هنا؟! كيف لم أنتبه من المرة الأولى؟ ألم تقل إنه أصم؟!" أتى عثمان ليضع كوبًا من السكر الأبيض الناصع فوق طبقٍ صغيرٍ وجواره ملعقة. قال عبد القادر وهو يُقلِّب قدح الشاي خاصته: "اجلس معنا يا عثمان." ثم أردف إلى حاتم مبتسمًا:" اعذرني يا أخي، ولكن عثمان يجلس بيننا متخفيًا، وقد قدمته للناس على أنه أصمّ، والعيون علينا، فأردت أن تكون ردود

أفعالك طبيعيةً أمامهم درءًا للشكوك."
تراجع حاتم بظهره وكلتا يديه تطبقان على القدح الساخن: "ولِمَ كل ذلك؟" أجاب مُضيفه السيناوي: "ألم تُرِد أن تعلم حكاية الجثث التي صورتها هذا الصباح؟." أومأ حاتم برأسه موافقًا.
التفت عبد القادر إلى عثمان: "قُص عليه أنت يا عثمان."
قال عثمان بلهجته السودانية، بملامحه الجامدة وعينيه ذَواتَيْ النظرة الحزينة: "لقد كدت أكون واحدًا من هؤلاء الذين صورتهم اليوم." تقلصت ملامح حاتم وهو يتذكر جثثهم المروعة. استطرد عثمان: "في الأصل أنا أحد أبناء دارفور، برغم بنيتي القوية كدت أَهْلَكُ من الجوع والظروف المعيشية السيئة، و قبل أن تهلك أمي وإخوتي، رأيت بعضًا من الشباب يتكالبون على سمسارٍ يقوم بتسفير الأفارقة اليهود من أريتريا وأثيوبيا إلى إسرائيل، قلت لنفسي: "لا ريب أنّ نقودهم- مهما قلَّت- ستكون أعلى مما أكسبه هنا في دارفور بظروفها البائسة. لم أبالِ أن يكتشفوا هناك عدم كوني يهوديًا، فعلى أية حال لم أكن لأعيش هناك بورقٍ رسميٍّ، كان المهم أن أعمل، وأرسل كل ما أتحصل عليه لوالدتي وإخوتي." ورفع رأسه إلى السماء صامتًا لبرهةٍ، قبل أن يردف: "ثمانية آلاف دولارٍ طلبهم السمسار مقابل تسفير أيٍّ منا. لا داعي

لذكر كيف استطعت تجميعهم، لا يهم كم اقترضت، وكم رهنت. بل وكم احْتَلْتُ، المهم أنني أعطيتهم له قبل السفر كيفما اشترط."

وأطرق للحظاتٍ ينظر إلى السجادة ذات المثلثات والمربعات المتداخلة، أردف:

- وفي الطريق، كان سفرنا في ظروفٍ لا يطيقها آدميٌّ، إلى أن وصلنا إلى سيناء مكدّسين في سياراتٍ رباعية الدفع (لاند كروزر)، كلّ سيارةٍ يتكدس فيها مِنّا مِن خمسة عشر إلى سبعة عشر، قبعنا كذلك أيامًا طِوالاً، مع تعليماتٍ مشددةٍ بأنّ من يتحرك من السيارة سيتم إطلاق الرصاص عليه فوريًّا

وتناول كوبًا من الماء، تجرعه وعيناه شاخصتان في الفراغ، تابع: "احتجَزَنا جماعةٌ من البدو، قال لنا السمسار إنّ الظروف قد تغيرت، والأمور تعقدت جدًا، ورفع المبلغ إلى أربعة عشر ألفًا من الدولارات الأميركية، أيْ، كان علينا في موقفنا العصيب ذاك أن ندفع فرقًا بمقدار ستة آلاف دولارٍ! ومن كان يرفض منا أو يقول إنه لا يملك المبلغ، يتم تعذيبه بوسائل مختلفة، كالضرب بالسياط، وسكب المياه الساخنة الملتهبة على جسده، وأثناء ذلك يتم الاتصال بأهله ليتواصل معهم ويضغط عليهم. وإن لم يُجْدِ كلّ ذلك؛ يتم تهديده بسرقة أعضائه إن لم يدفع أهلُه الفرق المطلوب."

ولوّح بكفه: "طبعًا معظمنا عجز عن دفع ما يطلبون، من كان يستطيع الهرب كان يهرب، ومن لا يستطع؛ ولا يدفع، كانوا يسلبون منه أعضاءه، ويتركونه ينزف؛ حيًا، إلى أن يموت! يفعلون ذلك أمامنا، كي نصدّق جدية تهديداتهم إن لم ندفع ما يطلبون."

تدخل عبد القادر مُخاطبًا حاتمًا: "لا أعلم إن كان لديك علمٌ أم لا، ولكن عدد القتلى الأفارقة الذين دخلوا مصر بطرقٍ غير شرعيةٍ بعد ثورة يناير ٢٠١١ قد زاد باطّرادٍ عمّا قبله، فنظرًا لزيادة معدل الانفلات الأمني، تشجّع المُهرِّبون على ممارسة أعمالٍ أكثر خطورةٍ، فبدأوا يحبسون المتسللين الأفارقة في شققٍ بسيناء أو المزارع، ولا يُطلقون سراحهم إلى بعد قيام ذويهم بدفع فديةٍ تصل إلى عشرة آلاف دولارٍ أميركيٍّ. طبعًا، ذلك بمساعدة عصاباتٍ من البدو، وكان المقابلُ من المهربين إمّا شحنةً من السلاح أو أموالاً سائلةً، فيما تنتظر المستشفيات الإسرائيلية الأعضاء البشرية المُهرّبة لتُباع بعد ذلك بثلاثة أضعاف ثمنها إلى الحالات الحرجة في جميع أنحاء العالم، وبمقابلٍ يتراوح من مئة ألفٍ إلى مئةٍ وخمسين ألف دولارٍ أميركيٍّ[١]." فغر حاتم فاه، كان يفكر في أنّه لم يكن بالخِسّة التي يدعيها من يتعاملون معه، ليتهم يأتون ليَرَوْا

(١) جميع المعلومات الواردة في الحوار واقعية

الخِسّة الحقيقية.

قال عثمان: "بعض المنظمات السودانية المشبوهة التي تدَّعي الاهتمام بملف دارفور الإنساني، حصلت في الواقع على مبالغَ طائلةٍ من السودانيين الراغبين في الهرب، وذلك بمقابلٍ يتراوح من ألفٍ إلى ألفيْ دولارٍ أميركيٍّ، على أن تصل بهم بمعرفتها إلى إسرائيل، ولكن بورقٍ رسميٍّ، إذ يُشترط التجنيد في جيش الدفاع الإسرائيلي." وأطرق وجهه أرضًا: "هؤلاء لم أتواصل معهم، إذ لم يتسنّ لأيٍّ مِنّا التيقن من سودانيٍّ واحدٍ وصل هناك فعلاً قط."

هتف عبد القادر: "العصابات البدوية التي تحدث عنها عثمان، هي جماعاتٌ مُسلحةٌ تتاجر بالمخدرات والسلاح، وأحيانًا يستغلون الأفارقة المتسللين في زراعة الحشيش."

قال حاتم مشدوهًا مُخاطبًا عثمان: "وأنت؛ كيف هربت منهم؟"

رفع عثمان بصره إلى السماء وقد تقلصت ملامحه وكأنه يتذكر أحداثًا مهولةً.

أجاب عنه عبد القادر: "ألم تعلم بأنني أعمل مع إحدى الجماعات التي تُهرِّب الأفارقة أمثاله؟"

وهوت المفاجأة صاعقةً على حاتم.

***

١٢

تتابعت أعمدة الإضاءة فوق كوبري السلام بسرعةٍ خاطفةٍ، ومَيّ قابعةٌ بجوار نادر في سيارته الفان، ترمقه بعينين لا تبصران، إذ جعلت تتذكر بشيءٍ من الأسى وضع شقيقتها دلال، وعدم قدرتها على البوح لها بحقيقة عملها؛ خوفًا على حياة شقيقتها ذاتها، فأحيانًا يكون الجهل أمانًا لصاحبه. عادت ببصرها إلى حاسوبها المفتوح على صورةٍ فوتوغرافيةٍ ليوفال مائير متوسطًا لمياء الخشاب ود. رؤوف برهامي وصمدي الوحش، في إحدى الحفلات، وقد رفعوا كؤوسهم في أجواءٍ احتفاليةٍ. عادت تنظر عبر النافذة شاردةً وقد استكانت لهدوء الليل. كانت تشعر بسعادةٍ لعودتها إلى سيناء واستكمال المهمة التي أَوْدَتْ بحياتهما المهنية. مجرد وجود نادر في مهمةٍ ميدانيةٍ معها يؤجج الجذل والحماسة في دمائها.

عادت إلى صورة مائير وهي تراجع في ذهنها الخطة التي وضعها قائدها.

***

عّدَّل حاتم من وضع عويناته، تحسّس بشرته بحرصٍ؛ تحسّس

بطرف لسانهِ طقم الأسنان الذي وضعته له مَيّ ليُغيِّر من شكل فكه، أخذ شهيقًا عميقًا من هواء الصباح المنعش وهو يشعر بشيءٍ من الغرابة في هيئته الجديدة، هتف به عبد القادر الذي يقود سيارته القوية عتيقة الطراز: "لا تقلق من براعة أستاذة مَيّ؛ فقد جعلتك شخصًا آخر بحقٍ." اختلس حاتم نظرةً في المرآة الجانبية لوجهه، شعر بسخافة تصفيفة شعره الجديدة، قال: "لا أنكر أنّ التنكر الذي صنعته بي متقنٌ لدرجة أنني لا أشعر بالارتياح كلما نظرت لوجهي!" هتف عبد القادر وهو يدور بسيارته مع منحدرٍ جانبيٍّ موازٍ لسلسلةٍ من الجبال: "عليك أن تنتبه جيدًا من يوفال مائير، إياك أن تسمح له بكشفك، أنا لم أَلْتَقِه شخصيًا قط، ولكن ما سمعته عنه من رؤسائي المُهرِّبين؛ أبدًا ما يبطِّمن."

تفقد حاتم عويناته وساعة يده: "لا تشغل بالك، نادر بِكْ راجَعَ معي كل شيءٍ أكثر من مرةٍ، وقد ألحقوا أجهزتهم في ساعة اليد وعويناتي كما ترى"، وأردف بابتسامةٍ تهكميةٍ: "وهذه ليست أول مرة، إن كنت تفهم ما أعنيه، فالتسجيل للآخرين؛ هو ما أتكسّب منه."

لحظةٌ وبدا عليه كما لو تذكر شيئًا: "لا أعلم إن كان ذلك سرًا أم لا، ولكني لا أستطيع كبت هذا السؤال؛ كيف تعمل مع المهربين؛ وتساعدنا؟!" لاذ عبد القادر بالصمت برهةً، قبل أن يُجيب: "لا

أدّعي أننا ملائكة، ولكننا كذلك لسنا شياطين. نحن، شعبَ سيناء، بطبيعتنا نرتبط بالأرض، مُحبون للزراعة، ولكن هل تعلم أننا كي نزرع يتعين علينا دفع رَشاوٍ للحصول على تصاريح من وزارة الزراعة؟ ومثلها لأجل المياه الجوفية؟! أنت تعلم أنْ ليس كلُّ أهل سيناء بهم طاقةٌ لكل هذه المصاريف، خاصةً أنّه ما في تنمية من أي نوعٍ، لذا تجد عائلاتٍ ليس أمامها إلا تجارة السلاح أو المخدرات، وأؤكد لك؛ أنّ كبار الضباط كما كانوا على علمٍ بأمر تجارة السلاح ويستفيدون منها، فقد كانوا كذلك يتفقون مع الناس على زراعة البانجو، ليقتسموا المحصول بعد ذلك مع أصحابها!." حدَّق إليه حاتم باستغرابٍ، استطرد عبد القادر بحنقٍ: "وما كادت فرحتنا تشتدّ جذوتها، مع بدء الخطط الحقيقية لتنمية سيناء؛ حتى حدث ما حدث، وتوقف كلُّ شيءٍ مرةً أخرى." وعبس وقد قبضت كفّاه على عجلة القيادة بقوةٍ، لاحظ حاتم انفعاله فلاذ بالصمت، إلى أن أردف عبد القادر: "لقد تعرفت بعثمان إذ لاحظت هروبه من مُحتجزيه، كان في حالةٍ مروعةٍ، لم أشأ تسليمه بعد أن صارحني بظروفه، بل وجعلني أهاتف أهله في دارفور"، وزمّ شفتيه بغضبٍ: "ومن ها الحين قررت أنّ الأوان قد حان لترك هذا العمل، لكن يتعين تركهم بالتدريج، ففي شغلتنا هذي.. ما ينفع تتركها فجأة."

ولمح لافتةً على جانب الطريق، فخفّف من سرعته، وتمتم: "وصلنا (دهب)، استعد للنزول، ستكمل أنت إلى هناك. الله معك."

***

دلف حاتم إلى مكانٍ مفتوحٍ صاخبٍ نابضٍ بالحياة يتضوّع بجوٍّ من التحرر والإغراء، تقدّمه اثنان من حرس يوفال، ثمة أغنيةٌ لاتينيةٌ راقصةٌ في الأجواء تصدح عبر منصةٍ على رأس حمّام سباحةٍ كبيرٍ يتوسط المكان. حاول حاتم الحفاظ على تركيزه وهو يرى عددًا مهولاً من الرواد في ثياب سباحةٍ ذوات القطعتين، ناهيك عن عددٍ ليس بالقليل تخلّى عن الجزء العلوي. انتبه إلى رجلٍ خمسينيٍّ بالملامح نفسها التي أعطاها إليه نادر، يجلس باسترخاءٍ إلى طاولةٍ بلاستيكيةٍ وقد فتح قميصه ليفسح المجال لشعر صدره الفضيِّ وعضلات بطنه القوية بالظهور. تقدم منه بخطواتٍ واثقةٍ ثابتةٍ، حيَّاه بإيماءةٍ قصيرةٍ وهو يُقدّم إليه بطاقةً أنيقةً دُوِّن عليها (راقية رأفت- المديرة المالية لمستشفى الخليج الاستثماري). نظر يوفال إلى البطاقة بتمعُّنٍ، ثم رفع رأسه إلى حاتم بتساؤلٍ.

"ما سبب نظرة الاستغراب هذه آدون يوفال، كلانا يعلم أن مدام راقية هاتفتك قبلاً، وأعلمتك بالموضوع"؛ بادره حاتم بنبرةٍ ماكرةٍ. ابتسم يوفال ابتسامةً باردةً، أشار إلى أحدهم فتقدم ليُفتّش حاتمًا،

أخذ ساعة يده، وهاتفه المحمول، وحزامه، وعويناته. هتف به يوفال مشيرًا إليه ليجلس إلى مائدته: "لا تقلق، ستستردّهم جميعًا أثناء خروجك." جلس حاتم وقد أحكم السيطرة على ملامحه، كان ذهنه من الاضطراب في غايةٍ وقد صارت مهمته بغتةً بلا جدوى بعد أن جرّدوه من كل أدواته.

أشار الإسرائيلي بيده فأتى النادل على الفور، شرع يرصّ أدوات المائدة، في الوقت الذي كان روّاد حمّام السباحة يتراقصون بحرارةٍ على أنغام الموسيقى اللاتينية الصاخبة وقد بلغ ايقاعها أَوْجَهُ. انفصلتْ عن جموع الراقصين فتاةٌ شقراءُ هائمةُ الشعر، ترتدي لباسَ سباحةٍ ذي القطعتين، كانت تسير مترنحةً وكأنها في حالة سُكرٍ، في إحدى يديها كأسٌ مُترَعة، والأخرى تلوح بها وهي تحافظ على رقصتها بالتوافق مع إيقاع الأغنية اللاتينية.

اقتربت بشكلٍ عفويٍّ في سيرها من مائدة يوفال، وفيما الجميع في استغراقهم؛ تعثرت الفتاة بغتةً لتقع فوق حاتم، ومن بين خصلات شعرها الهائمة التي تغطي وجهها تبين لحاتم أنها مَيّ، بلون شعرٍ وعينين مختلفين، وبحركةٍ خاطفةٍ ألصقت حبةً مغناطيسيةً بزرّ قميصه العلوي. حدجت حاتمًا بنظرةٍ مُنذرةٍ قويةٍ، قبل أن تقوم عنه وكأسها ما زال متزنًا في يدها لتتمتم بلسانٍ سكّيرٍ بكلماتٍ

روسيةٍ وكأنها تعتذر، فيما لا يكفُّ خصرها عن التمايل مع الإيقاع الراقص. لم يلحظ الجميع شيئًا سوى متابعة جسدها العاري الذي يبتعد على ذات الخطوات المترنحة. تابعها حاتم لا يدري مأخوذًا بالمُفاجأة أم بحسنها، أخرجه من حالته تلك صوت يوفال: "لماذا لم تأخذ ما تريد من المستشفى نفسها؟" استعاد حاتم تركيزه ليقول بابتسامةٍ وقد استردّ ثقته: "لماذا يروادني شعورٌ قويٌّ أنك تصرّ على الإيقاع بي؟"، وتجرّع رشفةً من كأس ماءٍ قبالته: "لقد اتفقت معهم بالفعل على القلب الذي أريده، ولكن المريض حالته متأخرةٌ للغاية، وأنت تعلم أنّ القلب المنقول بالذات لا يتحمل الحفظ إلا لفترةٍ وجيزةٍ، لذلك قررنا إجراء العملية في تل أبيب."
"ألِأنها فقط الأقرب؟"، تساءل يوفال. أجاب حاتم وهو يُشير بسبابته: "ولمهارة أطبائها كذلك، والتمريض طبعًا."
بدا يوفال كما لو كان يُقيِّم الأمر في ذهنه، قال وهو يُشعِل غليونه: "أنا لا أتعامل مباشرةً مع أيّ عميلٍ."
"أعلم، لماذا تظنني إذنْ أتيت بتوصيةٍ خاصةٍ من مدام راقية؟ وفي النهاية؛ الموضوع إنسانيٌّ"، ومال نحوه ليستطرد بصوتٍ خافتٍ: "وأكبر دليلٍ على ذلك؛ المريض على استعدادٍ ليدفع كلَّ ما تطلبون، وبلا نقاشٍ."، وضغط على كلماته: "أيًّا كان."

رمقه مائير كما لو يحاول سبر أغواره. تراجع حاتم وهو ينظر إلى عينيه مباشرةً بسلام نفسيٍّ تام.

"حسنًا، لنتكلم إذنً في التفاصيل"، اعتدل مائير قائلاً بحزمٍ.

***

رَنَتْ مَيّ إلى نظرة الظفر في عينيْ نادرٍ لتبتسم بتأثرٍ، منذ عاميْن مضيا لم تر تلك النظرة. كانوا يستمعون إلى تسجيلٍ لصوت يوفال مائير الذي حمل تورطه ومستشفى الخليج الاستثمارية في عمليات نقل الأعضاء البشرية، التفت نادر إلى حاتم الذي كان يحدق في السجادة البدوية ذات المربعات والمثلثات المتداخلة: "لقد أدرت الحوار معه بطريقةٍ حاذقةٍ، وصلت به إلى مناطق أستغرب ولوجك إليها بهذه السلاسة"، قال نادر بإعجابٍ قلما يظهر في كلماته. انتبه حاتم فأومأ برأسه شاكرًا وعلى شفتيه شبح ابتسامة. "الأروع أن هذا التسجيل سُجِّلَ بإذن نيابة"، هتف عبد القادر بحماسةٍ.

"أصدقكم القول، لقد كادت تنهار معنوياتي عندما احتجزوا العوينات والساعة، قلت الآن لم يعد لوجودي جدوى"، قال حاتم. هتف به نادر وهو يسترخي على الأريكة العريضة ذات الطراز البدوي: "في عملنا نتعلم وضع الخطط الاحتياطية؛ بنفس عنايتنا بالخطة الأساسية"، وأشار بسبابته: "ولم نكن لنتركك

وحدك مع يوفال." ابتسمت مَيّ بثقةٍ. اقترب منها حاتم ليهمس في أذنها: "زيّ السباحة خاصتك الذي ظهرتِ به صباحًا؛ كان تحفة، لا أنفكُّ أسترجعه خشية فقدان لمحةٍ واحدةٍ." أعطته مَيّ ظهرها وهي تتظاهر بالانشغال بحاسوبها اللوحيّ، لتحجب عنه الابتسامة التي أشرقت في وجهها.

"هل أتممت اللازم مع سناء؟"، تساءل نادر باهتمامٍ. التفت إليه حاتم: "تمّ تسوية كلِّ شيءٍ، هي فقط بانتظار الأمرٍ ببدء النشر."

ظهر الرضا على وجه نادر، قال وهو يُلملم أدواته: "سنعود أنا ومَيّ الآن إلى القاهرة، يتوجب عليّ تسليم التسجيلات بنفسي"، ورفع وجهه إلى حاتم: "وأنت ستمكث أمانةً لدى عبد القادر، إياك أن تغادر أو تظهر في أيِّ مكان، فلا زلت مطلوبًا من رعد عبد التواب، أما يوفال فهي مسألة وقتٍ وسيكتشف خدعتك، وربما يصل إلى حقيقة شخصيتك، أنت ليس لديك فكرةٌ عما لديه من أجهزةٍ."

تململ حاتم معترضًا: "أنا لا أطيق الاحتجاز!"

صمت نادر برهةً: "لا تتعجل، لقد قاربت الحلقة على الاكتمال."

***

١٣

بدت السماء صافيةً فوق قرية المهدية، على ضواحي رفح المصرية، مع هبوب نسائمَ جافةٍ خاليةٍ من الرطوبة، شعر معها حاتم بتقلصٍ في أوردة جيوبه الأنفية، وهو يستند إلى إفريز سطح دار عبد القادر، يتأمل حركة الشارع الضيق، وقد اعتراه كثيرٌ من الضيق والسأم. يومان مضيا على ذات الوتيرة، لا يُغادر غرفته إلا إلى دورة المياه أو إلى السطح حيث يقف. ينتظر خبرًا لا يأتي بالعودة للقاهرة. ليس لديه فكرةٌ كيف سيكون بمأمنٍ من رعد عبد التواب، أو يوفال، أو حتى أصحاب المستشفى الاستثماري، كلُّ ذلك لا يكترث له كثيرًا، فقد وثق بنادر لدرجة أنه سيعود يمارس حياته العادية بكل أريحيةٍ ما دام الرجل يرى أن ذلك صار ممكنًا، ولكن أن يُحتجَز كل هذه المدة، فهذا شأنٌ آخر!

وأبصر بوجهٍ عابسٍ عثمان قادمًا من ناصية الشارع ممتطيًا دراجته النارية، توقف أمام الدار ليتناول بعض الحقائب، راقب باهتمام شيخًا بدويًّا يشرح له بالإشارة شيئًا ما بعصبيةٍ. ومضت بغتةً فكرةٌ

في ذهن حاتم، بدا القلق على ملامحه وكأنه يَزِنُها في ذهنه، ولم يلبث أن فتر ثغره عن ابتسامةٍ باهتةٍ وهو يرفع منكبيه باستهانةٍ. وفي غضون دقائق، كان حاتم يُغادر الدار ليتسلل خلف عثمان، ويمتطي دراجته النارية، وما التفت الأخير إلا ليجد دراجته قد اختفت!

أطلق حاتم صيحةً ظافرةً منتشيةً وهو يعبر منطقة الأسواق البلدية، وقد رفع ذراعيه في الهواء، (أنا أشعر بالتغير نعم؛ ولكن ليس لدرجة أنْ أحب الاحتجاز) قال في نفسه وهو يزيد من سرعته ليمرق من بين بعض الزراعات، (بعض التنزه في الأنحاء لن يُضير أحدًا)، وخرج إلى الطريق الإسفلتي قاصدًا الطريق السريع.

بعد فترةٍ بدأ يشعر بالاضطراب، نظر للطريق الإسفلتي غير المطروق الذي توغّل فيه، هدَّأ سرعته، تلفت حوله وكأنما ضلّ طريقه، أطفأ المحرك ليُلاحظ أن السكون التام يعمُّ المكان. وقبل أن يسمح للقلق بأن يستولي عليه؛ دار بدرّاجته مُزمعًا العودة من حيث أتى، وبينما يُعيد تشغيل المحرك؛ اختلط هديره مع هديرٍ آخر قادم من مكانٍ ما. قطب جبينهُ بتساؤلٍ وترقبٍ، برغم الطريق الخالي تمامًا إلا أنّ الصوت كان حقيقيًا، ويقترب باطّراد. كان ذلك قبل أن تصعد إلى الطريق بغتةً عدة سياراتٍ سوداءَ فاخرةٍ، تنهب الأرض نهبًا.

تمامًا إلى حيث يقف.

***

كان نادر ينتظر إشارة مرور قرب منشية البكري عندما ارتفع رنين هاتفه المحمول، نقر نقرةً خفيفةً على جانب سماعة في أذنه: "آلو." وزوّى ما بين حاجبيه بتركيزٍ قبل أن ينهر مُحدِّثه: "هرب! كيف هرب؟!"، واستطرد بغضبٍ مكظوم: "ألم أشدد عليك أن تضعه تحت ناظريك؟"، وأنصتَ إلى مُحدّثه بملامحَ عابسةٍ، هتف بنبرةٍ شديدةٍ: "اجمع فورًا ما يتيسر لك من رجالٍ واخرج فورًا للبحث عنه"، وأردف ويداه تقبضان بشدةٍ على مقود السيارة: "ليس لديك أيّة فكرةٍ كم جهةٍ تريدهُ في هذه اللحظة."

***

ضغط حاتم على دراجته النارية لتنطلق بسرعتها القصوى، كان يقود على غير هُدًى، وإن كان واثقًا أنه يفرّ من الموت ذاته. وفي إثره؛ مرقت أربعُ سياراتٍ فارهةٍ تتعقبه بإصرارٍ.

شعر حاتم بهدير السيارات يزداد اقترابًا، لمح في المرآة انقسام السيارات لتشكيلَيْن ليطبقا عليه من الناحيتَيْن، أبصر سيارةً على يساره ينخفض زجاجها وهي تزداد اقترابًا، ازدادت ضربات قلبه جنونًا، توقع أن يظهر سلاحٌ ما الآن، مال يمينًا بغتةً بزاويةٍ حادةٍ

مُتهورةٍ ليمرق أمام السيارة التي على يمينه مباشرةً، سمع صرير مكابحها ينطلق هــادرًا، ولكنه واصل طريقه متمنيًا لو يظهر الخلاص فجأةً بأيِّ حالٍ.

اختلس نظرةً إلى مرآة سيارته ليبصر سيارتين فقط تطاردانه، لم يلمح الأُخريين اللتين وَلَجَتا في الرمال تاركين الطريق الإسفلتي، لم يستوعب ما حدث إلا عندما ظهرت السيارتان فجأةً من بين الرمال لتصعدا الطريق الإسفلتي وتقطعا عليه الطريق.

ضغط مكابح دراجته ليدور بها في زاويةٍ شديدةِ الضيق وهو يسمع مكابحَ تعوي في الخلف، وجد السيارتين الباقيتين تقطعان الطريق خلفه بإحكامٍ هي الأخرى. جحظت عينا حاتم، لم يدرِ أين المفر.

انفتح باب إحدى السيارات ليهبط منها شخصٌ ما، بسط حاتم يده أمام جبهته ليتقي ضوء الشمس المواجه لعينيه مباشرة، أمعن النظر.

(هذا الرجل الأنيق ذو الحُلة السوداء.. رعد.. عبد التواب!)

وتراجع حاتم خطوتين باضطرابٍ والرجل يتقدم إليه بخطواتٍ ثقيلةٍ واثقةٍ.

وارتسم الذعر على ملامح حاتم وذكرى تعذيب سميح الشريف التي سجلها بكاميرته المتقدمة تبرق في ذهنه بسطوع.

سميح عاريًا مُمددًا على معدته فوق الطاولة، الخطاطيفُ المشدودةُ

مخترقةً لحمَه، صرخاتُه المتألمةُ والدماءُ تنفجر من جسده.

شعر حاتم بجزعٍ لم يقابله في حياته، دار بعقبيه ليركض وليقتلوه وهو يركض خيرًا من تعذيبه كما سميح، ولكنه فوجئ باصطدامه برجليْن متأنقيْن بارزيْ العضلات والأسلحة، في حلةٍ سوداء. أمسكا به بغلظةٍ وإحكامٍ ليضعاه في مواجهة رعد مباشرةً.

ورأى حاتم في عينيْ الرجل ظلمةً غيرَ عاديةٍ.

شعر أنه يسقط في بئرِ عينيه الممتلئتيْن بالنقمة والضغينة.

أخرجه من حالته تلك سماعُ هديرِ محركاتِ سياراتٍ جديدةٍ تقترب باطّراد، التفت رجال رعد لبعضهم بتوترٍ وهم يستلّون أسلحتهم. اندهش حاتم بعد أن تركه الرجلان في ظهره، اشْرَأَبَّ بعنقه ليرى السيارات الرباعية الدفع القادمة تميل بعنفٍ وهي تتوقف وسط صراخ مكابحها المُدوِّي. وجفل وهو يرى رجالاً مسلحين يقفزون منها ليطلقوا عليهم النار... مباشرةً.

وقبل أن يستوعب ما يحدث؛ فوجئ بوكزةٍ هائلةٍ في ظهره أسقطته أرضًا بعنفٍ، رفع رأسه متألمًا ليجد رعدًا يسحبه زاحفًا باتجاه السيارة التي هبط منها، فيما كانت الرصاصات فوقهما تنهمر كالمطر من الاتجاهين. "لماذا يضرب رجالك النار على بعضهم بعضًا؟!" صرخ حاتم محاولاً أن يعلو صوته فوق الرصاص. جذبه

رعد بخشونةٍ زائدةٍ مجيبًا باقتضابٍ وهو يواصل الزحف: "أولئك القادمون ليسوا من رجالي." لم يستوعب حاتم ولكنّ رعدًا لم يُعطِه فرصة، إذ وصلا إلى سيارته في هذه اللحظة، ليفتح رعد بابها، دفع حاتم للركوب وقفز في إثره ليغلق الباب بعدها بقوةٍ.
انزلق حاتم في الدواسة فور ولوجِه إلى المقعد الخلفي، نظر إلى رعد كأنما ينظر إلى مجنونٍ وهو يراه يجلس بكل وقارٍ ليُعدل من هندامه هدوءٍ تام، انتبه رعد لنظرات حاتم المستنكرة، فحدجه بنظرةٍ صلبةٍ قبل أن يهتف به زاجـرًا: "قم فاجلس بغير ذعر، السيارة مضادة للرصاص." قام حاتم بترددٍ لينتفض بغتةً على دفقة رصاصاتٍ ارتطمت بزجاج النافذة؛ وإن عجزت عن اختراقه.
وفي الخارج، كان رجال رعد قد استوعبوا الهجوم المباغت بمهنيةٍ عاليةٍ، فاتخذوا تشكيلاً هجوميًا قاعدته سيارة رعد، كان سلاحهم الأساسي؛ المدفع الرشاش الآلي القصير Mp-5k، وهو ما وفر لهم قدرةً نيرانيةً عاتيةً، ومع احترافيتهم، لم يستغرق الأمر عشر دقائق، حتى ترامت جثث القادمين على جانبيْ الطريق.
طرق أحد الحراس على نافذة رعد، أنزل رعد قدرًا منها، لوح له الحارس بسلاحه لاهثًا: "تمام يا رعد بك." هتف به رئيسه: "هل فقدنا أحدًا؟." لوح الحارس بيده نافيًا. هتف به رعد: "اجمع

أسلحة المُهاجمين وأوراقهم الثبوتية وغادروا المكان سريعًا، لا ريب أنّ الجيش والشرطة سيكونون هنا عمّا قليل." أومأ له الحارس بتفهمٍ والنافذة تعود للارتفاع ثانيةً.

***

جعل زهران يدندن مع الأغنية الفلكلورية المنبعثة من المذياع وهو يقود سيارته الربع نقل، وجواره طفلته (نهلة) ذات الثلاث سنوات، كانت الصغيرة تعبث بدُميَتها عندما تراءى لها بغتةً شيءٌ ما، فانثنت بجذعها وأغلقت المذياع، التفت لها والدها مُنزعجًا هاتفًا بلهجةٍ سيناويةٍ: "لماذا يا نهلة؟، ماذا؟ هل أحللتِ حِزام الأمان مرةً أخرى؟" نظرت له نهلة وقالت ببراءةٍ: "بابا.. أريد الرجوع." قاد بيسراه فيما يمناه تعيد تشغيل المذياع: "فقط نوصل حمولتنا إلى طالبيها ونعود من فورنا، ولا تنسي أنكِ من ألححت على الركوب معي." كررت ببراءةٍ وكأنها لم تسمع حرفًا: "أبي.. أريد الرجوع." زفر وهو يَمُطّ شفتيه، كان ينوي التوقف وإعادة ربط حزامها ولكنه قدّر أنه قاربَ على الوصول. عاد يدندن مع أغنيةٍ أخرى عبر الإذاعة المحلية، وما لبث أن توتر وهي تنهض لتحشر نفسها وراء ظهره كيفما اعتادت، قالت وهي تفعل: "بابا.. أريد الرجوع!"، تجاهلها ومضى في دندنته باستمتاعٍ، وما يدري

إلا ووجد كفًا صغيرة تهوي على مؤخرة عنقه في صوتٍ رفيع حادٍّ، نظر لمرآة القيادة الوسطى ليجدها تنظر له ببراءةٍ مكررةً عبارتها: "بابا.. أريد الرجوع"، كاد ينهرها لولا أن رأى على قارعة الطريق ما جعله يشهق ويضغط مكابح سيارته بكل قوته.

كان ثمة رجالٌ مسلحون يقطعون الطريق، مسلحون برشاشاتٍ قصيرةٍ، مفتولو العضلات، تختفي أكثر وجوههم تحت عويناتٍ كالحةِ السواد. توقّف زهران مذعورًا، كان جلّ همّه مُنْصَبًّا على نهلة. دقّ أحدهم نافذته بكعب سلاحه بقوةٍ، اختلس زهران النظر لطفلته عبر المرآة الخلفية فوجدها انكمشت وراء ظهره، أسرع بإنزال الزجاج ليجد المسلح يصيح به بخشونةٍ: "استدر وعُد من حيث أتيت." تجمدت نظرة زهران وهو يحدق إليه بغير استيعابٍ. كرّر المسلح عبارته بخشونةٍ أكثر وهو يطرُق بسلاحه على سقف السيارة، أفاق زهران ليومئ برأسه بقوةٍ ويرجع إلى الوراء بأقصى سرعته، دار بسيارته بتهورٍ ليعود بها من حيث أتى. سمع صوت طفلته نهلة في هذه اللحظة خفيضًا متوسلاً: "بابا.. أريد الرجوع."

"يا رعد بِكْ إن كان أولئك الرجال لا يتبعون لكم؛ فتابعون لمن إذن؟" تساءل حاتم مُضطربًا. أدار رعد وجهه إليه ليتجمد ريقه في

حلقه وينكمش في جلسته، وما يدري إلا ووجد رعدًا ينقضّ عليه فجأةً لينتزعه من مكانه بحركةٍ عنيفةٍ ويُقربه إلى وجهه صائحًا ثائرًا: "هل لديك أيّ فكرةٍ كم كلفتنا إلى أن وصلنا إليك؟" حمى حاتم وجهه بكفيه وقد أيقظ ذعره كلّ تشبثه بالحياة؛ صاح مُلتاعًا: "لا أريد الموت، لن أتحمل أن يحلّ بي ما جرى لسميح الشريف."
تجمد رعد، بدا أنه تفاجأ من كلمات حاتم، جعل ينظر إليه بدهشةٍ قبل أن يرفع يديه عنه. ظل حاتم يحمى وجهه ويداه ترتعشان بحركةٍ عصبيةٍ.
تراجع رعد ليعدل جلسته فوق مقعده الوثير، عدَّل من هندامه، أخرج سيجارًا وأشعله وقد بدا عليه التفكير العميق. أرخى حاتم كفيه ببطءٍ وهو يُراقبه بتوجسٍ. نفث رعد نفسًا طويلاً من سيجاره قبل أن يلتفت إليه هاتفًا وقد عادت لملامحه جمودها: "هل كنت تظنّ كلّ هذا الوقت أنني أريد قتلك؟"
نقر أحد رجاله على زجاج نافذته في هذه اللحظة ليُلوحوا له أنهم قد انتهوا. أشار رعد للسائق أنْ أمضِ بالسيارة، ثم التفت إلى حاتم مستطردًا وفي صوته نبرةُ استهانةٍ: "أنا لم أفكر قطّ في قتلك، كلّ هدفي كان أن أصل إليك وأعطيك ما تريد من المال مقابل منع نشر ما سجلته كاميرتك. لن أحدثك عن وضعي الشخصي، ما يهمني

موقع أخي العامل في الرئاسة." صمت لحظةً قبل أن يردف: «ولأجل حفيدتي التي تبقت لي بعد مقتل والديها في الحادثة المشئومة. لم أرد أن تنشر ما يؤذي آخر مَنْ تبقّى لها». وصمت برهة قبل أن يتمتم: «هل تعلم أن الجنين الذي انتزعوه من بطن ابنتي؛ كان لأنثى، في شهرها السابع؟!».

نظر إليه حاتم باضطرابٍ وعدم استيعاب، أطرق وهو يزدرد ريقه بصوتٍ مسموعٍ، كان يشعر بالتشوش يصبغ كل شيءٍ، رفع بصره إليه: "ولكن رجالك سبق وأطلقوا عليّ النيران أكثر من مرة، فكيف إذن لا تريدون قتلي؟." نفث رعد دخان سيجارته مُجيبًا: "ليسوا رجالي، ولا يتبعون لي، ولم أعلم من هم ولا لماذا يظهرون، إلى أن اكتشفت جاسوسهم الذي اتضح أنه أحد حراسي." اتسعت عينا حاتم فيما رعد يستطرد: " لقد اعترف بأن رؤساءه تعمدوا إرسال من يتشبهون برجالي كي يلصقوا تهمة قتلك بي أنا." سأل حاتم مشدوهًا: "ولماذا؟.. ومن رؤساؤه؟" لوح رعد بالسيجار بازدراءٍ: "لقد فضَّل أن يلقى مصرعه على أن يُرشد عنهم؟" شحب وجه حاتم، تزحزح قليلاً بشكلٍ لم يلحظه رعد الذي أردف: "لعلهم كانوا يحتفظون بعائلته رهينةً ليمنعوه من الاعتراف عليهم."

والتفت إليه وهو يحدق في عينيه مباشرةً: "وها هم يصرون على

قتلك بأيّ شكل. لا أفهم، الصور تدينني أنا بالأساس، فما الذي يدينهم أيضًا ولا أراه؟" ابتعد حاتم عن النظر إلى عينيْ الرجل: "ولكن لماذا لم تتركهم لمهمتهم وتنتهي مشكلتك؟" أطفأ رعد السيجار في منفضة سجائر في جانب الباب، قال: "أنا لست قاتلاً، ولكن لدي ثأرٌ، وقد أتممته بقتل سميح الشريف، الرجل الذي يدير خطف الأعضاء البشرية، والمتسبب الأول في خطف وقتل ابنتي وأسرتها." وأخرج دفتر شيكات من الجيب الداخلي لحلته، وتناول قلمه: "والآن أريد إنهاء هذا الأمر تمامًا، قل الرقم الذي تريد مقابل إعطائي النسخ الأصلية لتسجيلاتك."

أطرق حاتم رأسه صامتًا للحظاتٍ، بَدَتْ على ملامحه كما لو كان يُعاني صراعًا ما، بعد وهلةٍ قال بترددٍ: "لقد توصلت إلى معلوماتٍ خطيرةٍ للغاية، لدرجة أن التسجيلات التي تريدها باتت بالغة الضآلة إن قارنتها بما توصلت إليه بسببها." رفع رعد رأسه إليه بتساؤلٍ، أردف حاتم بذات النبرة المترددة: "وما أخشاه، أنك لم تتم ثأرك بعد- في الواقع- سيد رعد."

شعر حاتم بأنّ وجه رعد صار يشع وهجًا، رفع رأسه إليه ليجد عينيْه حمراويْن وأنفاسه تلاحقت، جاء صوته قاسيًا: "ماذا تعني؟"

لاذ حاتم بالصمت وشعر أنه تورط.

رمقه رعد بنظرةٍ عميقةٍ، استرخى في مقعده، قال بنبرةٍ بطيئةٍ: "أعلم أنك لست في هذا بمفردك، وأن هناك من يُساعدك، لكن تأكد؛ وجودي معكم، سيصنع فارقًا كبيرًا." وصمت برهةً، أردف: "معي المال، السلاح، ورجالٌ مدربون شاهدت بنفسك كيف يعملون"، وبرقت في عينيْه نظرةٌ رهيبةٌ: "وثأري لابد أن يتمّ على أية حال، هذا إن كنت تفهم ما أعنيه."

رمقه حاتم بنظرةٍ متوجسةٍ وذهنه يعمل كالمرجل.

كان يفكر، وكان لابد لقراره أن يصدر حالاً.

وانفرجت شفتاه بترددٍ كما لو أنه على وشك إعلان قراره.

***

١٤

تلاحقت الأعداد الصحفية لجريدة "اللحظة" حافلةً بتحقيقات حاتم فهمي، تصدرتها عناوين جذبت الانظار:

"الكشف عن أكبر شبكة للاتجار في الأعضاء البشرية"

"حاتم فهمي يظهر أخيرًا ليكشف غموض أقذر جرائم العصر"

"تورط مالكي أكبر مستشفى استثماري في مافيا تجارة الأعضاء"

"أوامر ضبط وإحضار لأشهر ثلاث شخصيات على الساحة"

"ضلوع إسرائيلي في شبكة تجارة الأعضاء البشرية"

"الكشف عن غموض جثث الأفارقة المشوهين في سيناء"

"سعر الكلية الواحدة ١٥٠ ألف جنيه والكبد ١٠٠ ألف جنيه"

وفي قاعة المحررين، على مكتب سناء، تراصّتْ بغير انتظامٍ عدة أعدادٍ من الصحف بعناوين مختلفةٍ. أشار ماهر إلى الجرائد هاتفًا بابتسامةٍ صافيةٍ: "بمناسبة هذه الانتصارات الصحفية، هل يجوز القول أن تحديد ميعاد زفافنا صار قريبًا؟." ظهر مزيجٌ من الحياء

والارتباك على وجنتيْ سناء، نهضت من مقعدها لتدور حول مكتبها: "لقد اتفقنا أن تنتهي هذه القضية على خيرٍ بإذن الله، ثم يكون زواجنا." شعر ماهر بالحب يخفق بقوةٍ في قلبه، هتف هامسًا: "كم أشتاق لهذا اليوم." عدّلت سناء من وضع عوينات القراءة وعلى شفتيها ابتسامةٌ حييّةٌ، هتف بها ماهر مُؤثِراً ألا يُحرجها أكثر من ذلك: "جريدتنا تحقق في الفترة الأخيرة أرقام توزيع لا تحدث كثيرًا في عالم الصحافة." لوحت بكفّها بحماسةٍ وجذلٍ: "وتخيل أن تحدث هذه المبيعات في عصر الإنترنت والفيس بوك."

قال وهو يرمقها بإعجابٍ: "كان ذكاءً منكِ أن تضعي بموقع الجريدة على شبكة المعلومات فقط العناوين الرئيسية وبعض المقتطفات، أما التفاصيل فتركتِ عبارةً مشوّقةً (بقية التفاصيل في العدد الورقي)."

صاحت سناء: "البلد صاخبة بالفعل على تحقيقات حاتم، منذ زمنٍ طويلٍ لم ينشغل الناس بشيءٍ ذي بال." وأردفت وعلى شفتيها طيفُ ابتسامةٍ: "من كان يظن أنّ حاتم فهمي- تحديدًا- يظهر اسمه على تحقيقاتٍ بهذه الجدية؟!"

سألها رئيس قسم الحوادث: "إلى أين تظنين ستصل التحقيقات؟"

أجابت باهتمام: "لقد علمت من مصادري أنّ اجتماعًا عُقِد منذ قليلٍ جمع النائب العام بهيئة مكتبه، بعد البلاغات المتعددة التي انهالت عليه بعد تحقيقاتنا الصحفية."

***

من موقعه فوق سطح دار عبد القادر، جال نادر بعينيْه في الأنحاء، مال للأمام ليستند بمرفقه للإفريز الإسمنتي لسور السطح. "الشاي جاهز يا نادر بك"؛ صاح حاتم، واختلس نظرةً إلى مَيّ المنشغلة بالعمل على حاسوبها المحمول في شأنٍ ما، عندما عاد بناظريه وجد نادر يُقبل عليه. شعر بالانتعاش مع نسمةٍ ليليةٍ هَبّتْ في المكان المفتوح. قال نادر وهو يتناول قدحه: "رجال رعد كثيرون فعلاً، لقد طوقوا المكان من كلّ النواحي، وباحتراف." عَقَّبَ حاتم وهو يحتسي من قدحه على مهلٍ: "أنت لم تَرَه حينما علم بكل شيءٍ، نظرة الانتقام القاسية التي عكستها عيناه أشعرتني بالهول"، وترك القدح الساخن وهو يردف: "أكثر من اهتم بهم؛ ثلاثة، د. رؤوف برهامي، وصمدي الوحش، ولمياء."

عقَّب نادر وفي نبرته قلقٌ:

– هذا لأنهم المسئولون المباشرون عن مقتل ابنته وأسرتها.

– أو ليسوا كذلك؟!

- بلى، ولكن العدل سيأخذ مجراه دون تدخله المباشر، وأتمنى أن أكون وفِّقت في إقناعه بذلك في لقائنا، لقد ألمحت له بالتداعيات السلبية على شقيقه الأكبر العامل في الرئاسة، وعلى حفيدته، إذا تدخل وتمّ كشفه.

- ربما لأجل ذلك وافق على مساعدتنا في الإيقاع بهم بشكلٍ غير مباشر، عن طريق رجاله الذين انتشروا هنا لحمايتنا، وهناك في دهب حول يوفال مائير.

- رجاله المتخفون في دهب دورهم أشد خطورةً، فطبقًا لخطتنا، بعد النشر الصحفي لا ريب أنّ أصحاب المستشفى الاستثماري سيحاولون الإفلات.. ولأن الفساد عبارة عن مافيا واحدة؛ أتوقع أن يلجئوا لمائير إن لم يجدوا سُبلاً أكثر أمانًا للهرب.

أقبلت عليهما مَيّ حاملةً حاسوبها المحمول: "لقد وردني التأكيد الآن، كافة المعلومات التي زودنا بها عبد القادر؛ صحيحةٌ، وتم تأكيد الأدلة، مائير متورط فعلاً في تهريب سلاح وآثار.

أكمل نادر: بالإضافة إلى تجارة الأعضاء، وأفارقة لإسرائيل، والأخيرة من أخطر الجرائم التي تجري بسيناء.

جلست مَيّ جوار حاتم: "أظن بذلك أن ميعاد القبض عليه قد اقترب للغاية."

علق نادر وفي نبرته جديةٌ يشوبها القلق: "ذلك بشرط أن يظل تحت أعيننا، وألّا يتبخر."

***

أسدل الليل ستائره على القاهرة، لتخلو ميادينها المتألقة لأول مرة من اللافتات الإعلانية المضيئة لبرنامج "آسفين يا مصر" للإعلامية لمياء الخشاب، وقد استحالت إضاءتها الباهرة إلى ظلمةٍ مطبقةٍ.
وفي غرفة مكتب د. رؤوف برهامي، بمستشفى الخليج الاستثماري، بالمعادي الجديدة، اصطفّ ملَّاكها الثلاثة حول منضدة تراصت فوقها عدة صحفٍ تحمل مانشيتاتها جرائمهم.
قال صمدي بلهجته الصعيدية: "وماذا بعد الصدمات التي تواتينا تباعًا؟!" دمدمت لمياء بعينيْن زائغتيْن: "لقد أوقفوا برنامجي التلفزيوني!" قال د. رؤوف من بين دخان غليونه: "لا يجدر بنا النَدْب والعويل، علينا التحرك أسرع منهم، حتى هذه المستشفى لا نضمن إلى متى ستظل مفتوحةً."
لمياء: "والحل؟"، أجاب د. رؤوف: "علينا تجميع أكبر قدرٍ ممكنٍ من السيولة النقدية، فمن الوارد صدور قرارٍ بتجميد أموالنا بين لحظةٍ وأخرى، وربما تصل لمنعنا من السفر."
شحب وجه لمياء، أما صمدي فهتف بزهوٍ: "أنا والحمد لله

سحبت كل فلوسي، وحولتها إلى الخارج؛ من اللحظة الأولى لرؤية أول مانشيت." نظر إليه د. رؤوف شذرًا، فارتبك صمدي ليهرب بعينيه عنه.

هتفت لمياء: "وماذا تقترح كجهةٍ لهروبنا؟" أجاب د. رؤوف ببطءٍ: "لا مأمن لنا سوى في دبي، أو لندن." ارتعد صمدي: "يا دكتور استبعد لندن، لا أريد أن يتم إلقائي من شُرفة ما..."

تأفّف د. رؤوف: "يا حاج صمدي هذا كان عهدًا ومضى." بدا الاعتراض على محيا لمياء: "كلنا نعلم د. رؤوف أن بوادر ذلك العهد عائدةٌ بقوةٍ."

تم طرق الباب في هذه اللحظة، لتدخل عليهم سكرتيرته الأولى مهمومةً، قام إليها د. رؤوف ليتسلم منها ورقةً مطبوعةً، قرأها بسرعةٍ لتتسع عيناه بعدها ويفلت الغليون من فمه. انحنت السكرتيرة لتلتقطه إلا أنه نهاها بعصبيةٍ ولوح لها بالخروج. عمّ القلقُ لمياء وصمدي اللذيْن هُرعا إليه، بعد أن أغلقت السكرتيرة الباب صاح د. رؤوف: "لقد صدر توًّا قرارٌ بمنع ثلاثتنا من السفر." فغر فاه صمدي فيما تهاوت لمياء فوق أقرب مقعدٍ، قالت وقد وضح اهتزاز أعصابها بنبرتها المرتعدة: "أنا لا أتخيل نفسي في السجن!"، رمقهما د. رؤوف بعصبيةٍ، صاح بهما زاجرًا: "ما

بالكما؟! لقد توقعنا قبل لحظاتٍ شيئًا كهذا." جلس صمدي هو الآخر وهو يضرب كفًا بكفٍ: "يا دين النبي! ونحن الذين ظننا أن أيام المنع من السفر التي لا تصدر إلا بعد خروج المقصود فعلاً؛ قد عادت مرةً أخرى!" أشار إليهما بكفّيه أن يتماسكا: "يتعين علينا الهدوء كي نفكر بشكلٍ صائبٍ."

هتف صمدي وهو ينهض كمن وجد ضالته بغتةً: "لا سبيل أمامنا للخروج من مصر سوى آدون مائير."

بدا على رؤوف التفكير، أكمل صمدي بانفعالٍ: "نعم، هذا الرجل يقوم بتهريب مساخيط فرعونية، وأعضاء بشرية، هل يعدم وسيلة لتهريبنا نحن؟!"

نظرت لمياء إلى رؤوف نظرةً ذات مغزى، وكذلك صمدي راجيًا، فأطرق رؤوف وقد بدا عليه الاستغراق في التفكير.

***

١٥

بدا الجو صحوًا منعشًا في هذا الوقت من الظهيرة، في قرية دهب؛ بسيناء. وفي إحدى قراها المميزة، وعلى مقربة من حمام السباحة الكبير، كانت لمياء الخشاب تجلس إلى طاولةٍ وقد حجب أكثرَ وجهها عويناتٌ شمسيةٌ داكنةٌ، وجوارها صمدي الوحش بلباس السباحة، كانت عيناه لا تنفكان تتابعان الرائحات والغائدات من رواد المسبح، قبالته شبك د. رؤوف أصابع كفيه وقد ارتدى زيًّا صيفيًّا أنيقًا. أقبل عليهم يوفال مائير بقميصه المفتوح وقد ظهر عليه التأفف، سحب مقعدًا وجلس إليهم: "ليس من الحكمة أبدًا أن نتجمع كلنا في مكانٍ واحدٍ."

"هذه القرية بالذات ليس بها سوى الإسرائيليين، لذا ليس من السهل أن تدخلها الشرطة"، قالت لمياء بنبرةٍ متوترةٍ متوجسةٍ. التفت إليهم صمدي قائلاً وكأنه يُهوِّن الأمر: "دعك من أنّ الجيش والشرطة لديهما الآن أولويات أهم بكثيرٍ من قضيةٍ كقضيتنا يا آدون شامير"، صححت له لمياء: "مائير يا صمدي، يوفال مائير."

هزّ صمدي كتفيه باستهانةٍ، فيما مَطّ يوفال شفتيه امتعاضًا وهو يُشيح بوجه جانبًا.

قال د. رؤوف بلهجةٍ باردةٍ: "نشكرك على الاستقبال الحارّ آدون يوفال، ومع ذهنك الحاضر لعله لا يغيب عنك أنك متورطٌ معنا فيما نحن فيه، بل وربما يزيد، أحد أصدقائي في الأمن الوطني بالمناسبة أكد لي أن لديهم لك أكثر من قضية، ويترصدوك انتظارًا للحظة المناسبة."

تجاهل يوفال تلميحاته وهو يواجهه بشكلٍ مُباشرٍ: "هذه الورطة التي نحن فيها أنت من أوقعتنا فيها؛ د. رؤوف!"، التفت إليه رؤوف وهو يحدجه بنظرةٍ حادةٍ، تابع يوفال: "لم يبدأ الأمر مع انتحال الصحفي لشخصية عميلٍ جاء بتوصية من مديرتكم المالية، كما تحاولون أن تقنعوا أنفسكم!"، ظهر الضيق على وجوه ثلاثتهم فيما استطرد يوفال: "لقد راجعت بأناةٍ كلّ ما وقع خلال الشهور الأخيرة، الخطأ بدأ منكم حينما استبدّ بكم الجشع وقررتم توسيع نشاطكم بالاستعانة بالبلطجية وقطاع الطرق كي يصطادوا الضحايا عبر طرق السفر"، وارتفعت نبرة صوته وهو يحتدّ: "لماذا؟! ونحن استقررنا على ما يرد إلينا عبر مكاتب تشغيل العمالة في محافظاتكم التي توهم العاطلين بتوظيفهم وتسفيرهم

إلى الخارج". صاح صمدي: "مكاتب تسفير العمالة لم تعد تفي بعجلة الطلب الذي يزداد باطرادٍ، فريثما يقوم المتقدم للسفر بإجراء التحليلات والكشف الطبي الذي أطلقنا عليه مسوغات التوظيف، حتى يكون المريض المشتري عادةً قد مات!".

لوح يوفال بكفه متجاهلاً تعقيب صمدي وهو يُتابع: "ومن عاثر الحظ أن قطاع الطرق التابعين لكم أوقفوا أسرة ابنة رعد عبد التواب، المقاول الشهير، وقتلوا كل أسرتها و..."، قاطعه رؤوف بضيقٍ: "لقد تم قفل هذا الموضوع منذ زمن". زادت حدة يوفال: "ما نحن فيه يثبت أنه لم يُغلق بعد! مصادري تؤكد أنه يريد الانتقام، حتى إنّه شوهد مع المدير خاصتك سميح الشريف، يوم مقتله!".

قال صمدي: "هذا ما نعلمه كذلك، فنحن بطبيعة الحال جنّدنا أحد حرسه الشخصيّ، الذي سرب لنا كافة أخباره وتحركاته."

التفت إليه يوفال قائلاً باستخفافٍ خشنٍ: "وقد هداكم ذكاؤكم أنكم عندما توحون إليه بأن سميح هو المسئول الوحيد عن ذلك، ستُغلق الحلقة ويهدأ بمقتله!".

قدم عليهم في هذه اللحظة نادلٌ وضع أمامهم كؤوس الشراب، لزموا الصمت إلى أن غادرهم، فقالت لمياء: "كان كل شيءٍ يسير وفق ما خططنا، لولا ظهور ذلك الصحفي اللعين وتصويره

اللحظات الأخيرة في حياة سميح." التفت يوفال لرؤوف: "كان يمكن تدارك الأمر لو أخبرتني أن ذلك الصحفي في سيناء، لقد كنت تعلم ذلك، لماذا لم تخبرني؟!" أطبق رؤوف شفتيه بغضبٍ مكظوم، تطوعت لمياء بالرد: "لقد علمنا متأخرًا، ولم نتوقع أن يتحركَ بهذه السرعة، ثم أَلَمْ تعلم بأن كافة رجالنا الذين قدموا للنيل منه تمّ قتلهم جميعًا؟." هتف يوفال: "وذلك يعني أنه ليس بمفرده، رعد بجانبه، بشكلٍ ما تواصلا معًا، أن يتشاركا المعلومات؛ فهذا ليس جيدًا أبدًا".

انبرى د. رؤوف: "خلاصة القول إنّ هذا الصحفي ليس بمفرده، ونحن جميعًا لسنا بأمانٍ، فإذا كانت الدولة مضطرةً لأن تتبع الإجراءات القانونية كي تقبض علينا؛ فرعد ليس كذلك، هذا رجلٌ قذرٌ ومجرمٌ عتيدٌ".

"سيكون من سوء حظك أن يكون ذلك الصحفي قد توصل إلى أنك من وظّفت البلطجية لقطع طرق السفر على المسافرين، سيدرك حينها رعد أنك المسئول الأول عن مقتل ابنته وسرقة أعضائها وأسرتها"، تهكّم مائير.

نظر رؤوف إلى عينيه مباشرةً وبنبرةٍ حاسمةٍ قال: "آدون يوفال، نحن نعلم أنك حزمت أمرك على العودة لإسرائيل، ونحن نطلب

أن تصطحبنا برفقتك" .

حدجهُ يوفال بنظرةٍ حادةٍ كمن بوغت، تناول كأسه ليرتشف منه رشفةً استساغها على مهلٍ، أعاد الكأس وهو يقول ببطءٍ: "هذا ليس سهلاً. وماذا عساكم تفعلون هناك؟" أسرع صمدي مُجيبًا: "لن نمكث فيها، إنها مجرد محطة للسفر إلى دبي." أشاح يوفال بوجهه صوب حوض السباحة، قال د. رؤوف بنبرةٍ ذات مغزى: "نحن جميعًا مصالحنا وعلاقاتنا مترابطةٌ آدون يوفال، وليس في صالحك أن يتم القبض علينا." عبس يوفال وتمعّر وجهه، بعد لحظةٍ قال: "أعتقد أنّ معلوماتكم ليست بالحداثة التي تظنونها."

توجهت إليه عيونهم المتسائلة، أكمل:

"يبدو أن الأمن الجنائي ليس وحده المهتم بالقضية، قد علمت قبل قليلٍ أن ثمة جهازًا سياديًّا قام بإدراج اسمي كذلك ضمن كافة المنافذ مع أمرٍ بالمنع من السفر والتحفظ."

لمياء باستغرابٍ: "أتعني أنك كذلك لن تستطيع العودة؟!" أجاب بغموضٍ وهو يتناول كأسه: "ليس عن طريق المنافذ." تساءل صمدي: "كيف ستخرج إذن؟" تجرع كأسه دفعةً واحدةً، جَالَ في وجوههم سائلاً: "من منكم غاص قبل ذلك؟"

تبادل الشركاء الثلاثة نظراتٍ متسائلةً. قال صمدي: "أنا أجيد

العوم." ضغط يوفال على أسنانه: "أقول غاص!". هتفت لمياء بتوتر: "إلام ترمي بالضبط آدون يوفال؟" صمت يوفال لحظةً قبل أن يعتدل ليقول: "ثمة خطةٌ لدي للطوارئ، يمكن تعديلها لتضمكم معنا"، وجال في وجوههم: "ثمة قاربٌ سينتظرنا بالقرب من دهب، سينقلنا متخذًا مسارًا في منتصف مياه خليج العقبة تمامًا، وقبل ميناء إيلات أربعة كيلومترات سننزل المياه بملابس الغوص، لنكمل طريقنا تحت الماء إلى إيلات؛ حيث قاربٌ ينتظرنا سينتشلنا من هناك".

ضاقت عينا رؤوف، فيما شحب وجها لمياء وصمدي، هتف الأخير: "ولكننا بذلك سنكون أهدافًا سهلةً على شاشات رادار حرس السواحل!". أوضح يوفال: "الرادار خاصتكم يلتقط الأجسام الكبيرة فقط، هذه معلومةٌ تأكّدتُ منها، دعكم من أننا سنكون على عمقٍ آمنٍ لا بأس به." تساءلت لمياء: "وكيف سنصل غوصًا إلى إيلات عبر مسافةٍ قدرها أربعة كيلومترات؟!"، قال صمدي مُلتاعًا: "شخصيًا؛ عندما أنجح في السباحة لمئة مترٍ، يكون ذلك فضلاً من الخالق!" قال يوفال: "كلٌّ منكم لن يسبح تحت الماء بجهده الشخصيّ، بل بواسطة محركٍ خاصٍ، ذي تقنيةٍ متقدمةٍ، في حجم كرة السلة أو أكبر قليلاً، ذي مقبضٍ على

الجانبين، كلُّ ما عليكم فعله هو أن تقبضوا عليهما جيدًا؛ وهو سيسحبكم إلى النقطة المرادة." تساءل رؤوف: "وكيف سنعلم الاتجاهات تحت الماء؟!"، أجاب يوفال وهو يُضَيِّق عينيه: "الجهاز مُزوّد بوحدة GPS لتحديد الأماكن، وجهتنا محددةٌ مسبقًا في الجهاز كي ترشدك إلى الاتجاه الصحيح."

"وهل هذه الأجهزة متوفرة الآن؟"، تساءلت لمياء.

"جميعُ ترتيبات الغوص متوافرةٌ، أمّا المحركات وأجهزة الجي بي إس، فستصلنا قرب الليل"، أجاب يوفال.

تبادل الشركاء الثلاثة النظر لبعضهم وقد ارتجّ عليهم الأمر. نهض يوفال وهو يقول: "جميعكم ستخضعون لفحوصاتٍ طبيةٍ اليوم، يجب التأكد من حالتكم الصحية قبل الغوص." استوقفته لمياء: "ومتى ميعاد تحركنا؟"، رمقها بنظرةٍ طويلةٍ، قبل أن يسعل بقوةٍ، ليقول بعدها باقتضابٍ: "قبل الفجر."

***

قبع صمدي عابسًا مهمومًا جوار لمياء التي جعلت تدخن بعصبيةٍ، ظهر رؤوف خارجًا من غرفة الفحص غير مهندم الثياب، نهض صمدي استجابةً لإشارة الطبيب الذي ناداه، إنّه دوره في الفحص، تأملت لمياء جسد رؤوف الرياضيّ برغم عمره الستينيّ، نظرت له

بتساؤلٍ فهزّ كتفيه باستهانةٍ: "الحمد لله، صحتي جيدة جدًا."

***

في إحدى استراحات القرية السياحية بدهب، تمامَ منتصف الليل، وفي أحد الأورقة في الطابق الثاني، تحامل رجلان بجهدٍ حاملَيْن صندوقًا خشبيًّا كبيرًا. دخلا به إلى غرفةٍ خافتة الإضـاءة، كان بانتظارهم يوفال مائير، تفحص الختم بعنايةٍ على قفل الصندوق قبل أن يُشير إليهم بالمُغادرة. أوصد الباب على نفسه بإحكامٍ ثم ذهب إلى النافذة الزجاجية للحجرة يتأكد من إغلاقها. عاد ليفَتح الصندوق الخشبيّ، جالت عيناه في المحركات، رفعهم ليفحصهم واحدًا واحدًا، بعد أن فرغ جلس إلى طرف فراشٍ وثيرٍ وفي يده إحدى اللوحات الإلكترونية للجي بي إس، مضى يتأكد من تشغيلها ثم ضبط الإحداثيات المطلوبة، ألحق كلَّ محركٍ بواحدةٍ منها. أشعل شاشات المحركات ليتأكد من صواب الاتجاه. بعد أن انتهى نظر إلى المحركات برضًا، قبل أن يُغادر الحجرة مشغول الذهن.

***

في الهزيع الأخير من الليل، شقّ السكون خطوات أربعة أشخاصٍ في ملابس الغوص، يَلِجُون مياهَ شاطئ البحر، متجهين صوب قاربٍ مزودٍ بمحركٍ كاتمٍ للصوت. كان د. رؤوف في المقدمة،

يليه لمياء، ثم صمدي الذي لا ينفك يتعثر في خطواته، وفي المؤخرة يوفال.

صعد أربعتهم إلى القارب، اتخذوا مجالسهم، ليشرع من فوره بالتحرك. في الوقت الذي كان يوفال فيه مُنشغلاً بالحديث مع ربّان القارب، كانت أذهان الشركاء الثلاثة تموج بأفكارٍ متباينةٍ، رؤوف يُحدّق في البحر المظلم شاردًا متجهمًا، صمدي قلقٌ، ولمياء متوترةٌ.

بغتةً وجد صمدي صوته يخرج بأسًى: "أفي هذا السن أعاني بهذا الشكل؟!"، التفتتْ إليه الإعلامية الشهيرة: "أليس ما نحن فيه أفضل من زنزانة السجن؟!"، و زفرت: "ثم ما هي إلا ساعاتٌ ونكون في غرفاتنا آمنين في إسرائيل، وباكرًا على الأكثر نكون في دبي." انشرح وجه صمدي وقد طمأنته كلمات لمياء. وفيما يشق القارب عباب مياه خليج العقبة؛ ارتفع صوت يوفال: "استعدوا من فضلكم، في غضون دقائق سنصل إلى موقع الغوص." شرعوا يرتدون أسطوانة الأكسجين بتركيزٍ. أوقف ربان القارب المحرك ليبدأ بالتهادي، دار القارب في مناورةٍ صغيرةٍ إلى أن ارتفع صوت الربان هاتفًا بالعبرية: "نحن في تمام النقطة المطلوبة آدون مائير." أتمّ يوفال ربط حبلٍ طويلٍ متينٍ في حلقةٍ صغيرةٍ على جانب خصرهم، قال: "هذا الرباط سيضمن ألا يشرد أحدنا عن الباقين."

كان رؤوف أول من أتم ارتداء أدواته، نظر باتجاه مائير بما معناه (هل أقفز الآن؟)، أومأ له الأخير بالموافقة. قفز رؤوف بجسارةٍ، تبعته لمياء بلا ترددٍ. تجمّد صمدي برهبةٍ من القفز، خلع مدخل التنفس عن فمه، قال راجيًا: "هذه أول مرةٍ أغطس يا مائير، لا أريد أن تكون الأخيرة." زجره يوفال: "ما دمت تقبض على مقبضيْ المحرك، ولا تعبث بالحبل الذي على جانب خصرك؛ فلن يُصيبك مكروهٌ، هيا، فللثانية قيمتها"، وأعاد مدخل التنفس إلى فمه بخشونةٍ، وأنزل عوينات الغطس لتغطي نصف وجهه، ودفعه بعدها بغِلظة. أتم المِثل مع نفسه، نظر نظرةً أخيرةً إلى القارب، وقفز إلى الماء.

قبض صمدي على قبضتيْ المحرك باستماتةٍ، أشعل يوفال له شاشة التوجيه، أشار له لاتّجاه السهم حيث وجهتهم. فعل الباقيان المثل، أشاروا له علامة الاستعداد، ليغطس أربعتهم في آنٍ واحدٍ بادئين بالتحرك.

وفي الأعماق، أشعلوا كشافات الإضاءة في مقدمة محرّكاتهم، وانتظموا في خطٍ شبه منتظمٍ، أوّله يوفال، يليه صمدي، ثم لمياء، وأخيرًا رؤوف. بعد نحو عشرة دقائق من تحركهم تحت الماء، وبرغم تشبث صمدي بقبضتيْ المحرك بتشنجٍ، إلا أنه شعر أن

الأمر ليس فعلاً بهذه الصعوبة. برقم دقة الموقف راق إلى لمياء مشهدُ هروب أسراب الأسماك أمام كشاف ضوئها.

مضوا في رحلتهم بلا مشاكلَ، إلى أن أوقف يوفال محركه وهو يُشير إلى الأعلى. وَجَّهوا كشَّافاتهم حيث أشار؛ ليظهر لهم قاع قاربٍ متوقفٍ يتهادى مع الأمواج. انشرحت قلوبهم. شرعوا في الصعود تباعًا.

جذبت يدٌ قويةٌ مائير، لفت نظره عدم وجود إضاءةٍ في الزورق، جذبت يدٌ أخرى صمدي سرعان ما عاونتها أيدٍ أخرى، امتدت يدٌ للمياء التي صعدت بسهولةٍ. وقفت الإعلامية الشهيرة تتمعن في الواقفين على السطح، فغرت فاها بذهول، صمدي ويوفال تم تقييد حركاتهما وتكميم أفواههما من قِبل رجالٍ كُثرٍ على سطح القارب، مسلحين، إنهم خفر السواحل المصرية!

* * *

١٦

انطلقت الألعاب النارية في سماء ليل القاهرة، ليتحرر منها صوتٌ كدويٍّ المدافع، في ذات اللحظة التي انبثقت منها ألوانٌ جميلةٌ براقةٌ، متخذةً أشكالاً متنوعةً مبهجةً. وفي الأسفل، حيث حديقةٌ متراميةُ الأطراف لفندق خمسة نجوم، تلألأت أركانها بحبالٍ ضوئيةٍ ذات إضاءةٍ شاعريةٍ رقيقةٍ، وفي أعلى تَبَّةٍ عُشبيةٍ انتصب عامودان عاليان بينهما لافتةٌ نسجت بالورود والأزهار، لتكتب:

حفل زفاف سناء و ماهر

وفي الوقت الذي كانت فيه الفرقة الموسيقية الرئيسية تعزف في الهواء الطلق معزوفة "La Rejouissance[1]"، كانت سناء تتألق في ثوب زفـافٍ أبيض، موشح بخيوطٍ لامعةٍ، عاري الكتفين، يعلو رأسها تاجٌ أبيضُ رقيقٌ، وتضحك بصفاءٍ على دعابةٍ من رئيس تحريرها الذي يتوسطها هي وعريسها ماهر؛ رئيس قسم الحوادث بذات الجريدة. ومن موقعٍ غير بعيد، كان

(1) By Handel- La Rejouissance- from Music For The Royal Fireworks

حاتم في حلةٍ حديثة الذوق بدرجةٍ متطرفةٍ، يَكِزُ مَيّ في كتفها، وهو يتأمل باعجابٍ فستانها الأرجوانيّ الأنيق، قائلاً بنبرةٍ مداعبةٍ: "للمرة الثانية تنجحين بدخول حصن يوفال مائير في دهب، ما يُثير فضولي الصحفي، كيف قمتِ بتغيير إشارة موقع أجهزة الجي بي إس إلى الموقع الذي انتظر فيه خفر السواحل؟." رفعت أنفها بإعراضٍ مصطنعٍ وهي تسأله: "ولمَ لمْ تطرح سؤالك على السيد نادر؟" اقترب منها أكثر حتى شعرت بدبيب أنفاسه الدافئة، قال هامسًا: "وما الدعوى التي أتجاذب بها أطراف الحديث معكِ إذن؟" ابتسمت بغموضٍ، ورغمّاً عنها وَمَضَتْ في ذاكرتها لحظاتُ تسللها لمقر يوفال مائير؛ إلى اللحظة التي خرج فيها يوفال من الغرفة، كانت في ذات التوقيت في زيٍّ أسودَ يغطيها بالكامل، ملتصقةً بالحائط الخارجيّ، بجوار نافذة الغرفة، مثبتةً نفسها عبر حبالٍ متينةٍ على سطح الاستراحة، تستمع بانصاتٍ كاملٍ لما يدور بالداخل عبر مجسٍّ خاصٍّ ألصقته بالجدار، بعد دقيقةٍ من سماعها صوت دوران المفتاح في المزلاج، اختلست نظرةً عبر الزجاج بحذر، وبخفةٍ أخرجت أداةً صغيرةً، فتحت بها النافذة بحرصٍ، قفزةٌ واحدةٌ وكانت داخل الحجرة. أرخت الحبل حول

خصرها، نزعت قناعها المطاطيّ الأسود، اتجهت نحو الصندوق الخشبيّ من فورها، وفي وقتٍ قياسيٍّ؛ ألصقت حباتٍ مغناطيسيةً سوداءَ، بظهر شرائح الجي بي إس المزروعة في المحركات، بعد أن انتهت قامت بتشغيل كافة شاشاتها، تأكدت أنّها جميعها تتجه لذات الوجهة التي أرادتها. أغلقتها بسرعةٍ وأعادت كُلّاً منها إلى مكانها بذات الترتيب.

وحينما كانت تعتلي النافذة للخروج، كان على شفتيها ابتسامةٌ جذلةٌ... وظافرةٌ.

أعادتها لأجواء الحفل ربتةٌ خفيفةٌ من حاتم: "هييه، أين ذهبتِ؟ السيد نادر قادمٌ علينا." تهللت وهي تسرع الخُطى إليه. مدّت يدها تصافحه بحرارةٍ: "ألف مبروك يا افندم، لقد علمت أن حضرتك عدت للجهاز بعد تقفيل قضية يوفال مائير." ابتسم الرجل بوقارٍ، أشار إلى مَيّ وهو يقول بلهجةٍ حانيةٍ: "ألن تبارك إلى مَيّ على رجوعها للعمل هي الأخرى؟ أم تنتظر إلى أن أبارك أنا لكما معًا في القريب العاجل بإذن الله؟" خفق قلب حاتم وهو يقبض برقةٍ على كف مَيّ، التي تخضب وجهها وقد عصف بها شعوران مختلفان؛ حياؤها من تلميح قائدها بمعرفته بخطبتها القريبة بحاتم، ومفاجأتها بعودتها هي الأخرى للعمل بالجهاز. قالت

غير مصدقة: "هل عدت حقًا أنا الأخرى؟." أجاب بجديةٍ: "لم أغادر الجهاز اليوم إلا بعد توقيع الأمر أمامي." التفتت إلى حاتم وقد وقفت على أطراف أصابعها سرورًا، وجدته ينظر إلى اتجاهٍ ما، نظرت حيث يحدق فلم تتبين بسبب الزحام، في الوقت الذي هتف هو: "لن تصدقي. لقد رأيت كريستيان." هتفت به: "حقًا، لم أظنه مدعوًا.. أين هو؟" قال وهو يجذبها: "وهل مثل هذا يعجزه دخول أي مكان؟ لقد لمحته يرفع لي كأسًا مُحييًا بابتسامته الماكرة." لوحت إلى قائدها مُستأذنةً وهي تهرول معه. وصلا إلى النقطة المنشودة، قالت: "أين يا حاتم؟." تلفت حوله: "لا أعلم. أقسم أنني رأيته"، وما لبث أن لاحت ابتسامةٌ على جانب شفتيه متمتمًا: "هذا أنت يا كريست، تظهر وتختفي كيفما تريد."

سمعا في هذه اللحظة، صخبًا وهرجًا عند مدخل الحديقة، لمح حاتم العروس ترفع فستانها هونًا وهي تهرول باتجاه الصخب، وجد نفسه يهرول هو الآخر لتفقد الأمر. توقفت مَيّ شاعرةً بالتعجب من هرولة عدد من المدعوين دون سببٍ واضح. اقترب منها نادر في هذه اللحظة، سألته بدهشةٍ: "ماذا يحدث؟!." رأيا كتلةً من البشر تتقدم ببطءٍ، انبثق منها عم صابر وقد أخذ بذراعيه على الجانبين حاتم وسناء، يُساعدانه على المشي، وهو يبتسم

لهما ابتسامةً واهنةً.
"لفتةٌ جميلةٌ من سناء." هتفت مَيّ.
من وسط المدعوين، وقف بكري؛ الصحفي بجريدة "اللحظة"، يتمعن في حاتم وهو يسند الجدّ العجوز، قبل أن يُغمغم مُتعجبًا: "لقد تغير حاتم فعلاً."
حثت مَيّ الخطى لتصافح صابر وتطمئن عليه، أجلسهُ ماهر عند أقرب نقطةٍ لصوان العرس. سحبته مَيّ برفقٍ هامسةً: "أسمع عددًا من المدعوين يتحدثون عنك، يتعجبون، أريد أن أسألك مباشرةً، هل كنت فعلاً -لا تؤاخذني- وغدًا؛ لهذه الدرجة؟!"
أطرق حاتم، لاذ بالصمت، ندمت مَيّ شاعرةً أن تجاوزت معه، قال لها: "أنا طيلة عمري أنانيٌّ؛ لا أنكر، ولكن بعد حادثة غرق ابنتي، شعرت بالضغينة تجاه الدنيا كلها، أحسست ألّا أحد يساعد الآخر، وإلا كانوا أنقذوا ابنتي، أو على الأقل وجدوا جثتها لأدفنها، بدلاً من أن تكون طعاماً للأسماك." وجمت مَيّ، قالت: "حديثك ذاك يوقظ في نفسي ذكرى مؤلمةً، حَسْبُك من الحديث." كانت قد أخبرته سابقًا بشأن غرق والديها في عبَّارة السلام، التفت إليها: "أعلم أنني أظهر مستهترًا بالآخرين في مواقف كثيرةٍ، ولكن صدقًا؛ ليس الأمر كما يبدو."

قالت له مُشاكسة: "أكيد، بدليل أنك لم تجد غضاضةً في الهروب عبر إلقاء جثث الأموات من سيارة نقل الموتى!" اتسعت عيناه كمن فوجئ، التفت إليها ليُطلق ضحكةً مبتورةً، قال: "لقد خالت عليك الخدعة إذن؛ كما خالت عليهم." نظرت إليه بتساؤلٍ، استطرد: "حينما كنت في سيارة نقل الموتى، وسط صناديق الجثث، كنت من التوتر والذعر في غاية، والمطاردون يتعقبونني باستماتةٍ، في الوقت الذي وقعت عيناي على الصناديق التي تحوي الموتى، انحنيت أتفحصهم، كشفت الغطاء، لم أجد سوى بعض البطاطين والملاءات المتكومة، كانت الصناديق خاليةً من الجثث. فسارعت بدحرجتها لإلقائها من سيارة النقل، فقط بغية تعطيل المُطاردين." رمقته بشكٍّ، هتف بها مبتسمًا: "ما أسهل أن تراجعي جمعية نقل الموتى، صاحبة سيارة النقل، لتتأكدي مما أقول."

ضحكت عينا مَيّ. قدم عليهما بكري في هذه اللحظة: "بصراحة تحقيقاتك الأخيرة ضربة معلم، مصر كلها تتحدث عمن تم القبض عليهم بسببك." رسم حاتم ابتسامةً مصطنعةً، لم يكن يطيق بكري في المعتاد، فكيف وهو يقطع حواره مع مَيّ، استطرد بكري: "ولكن الغريب أن مافيا تجارة الأعضاء تم القبض عليهم جميعًا؛ إلا واحدًا." مَطّ حاتم شفتيه: "هذا بالذات لغزٌ حيَّر الجميع،

فأربعتهم كانوا تحت الماء، فكيف اختفى إذن؟"
تساءل بكري: "لعله غرق؟!"
"د. رؤوف؟! المعلومات عنه أنّه غواصٌ ماهرٌ. على أية حال فقد مسح الغواصون المنطقة ولم يجدوا جثته"؛ عقَّب حاتم.
غمغمت مَيّ: "هذا الرجل داهية." انضم إليهم نادر في هذه اللحظة، سألهم بجديته الدائمة: "المفترض أن رعد عبد التواب أحد المدعوين، ألم يره أحدكم؟"
تلفَّت حاتم: "صحيح، أنا لم أره قط، ترى.. أين هو؟"

***

قاعةٌ ذاتُ حوائطَ رطبةٍ، مواقعُ كثيرةٌ سقطت عنها قشرة الطلاء.
ثمة إضاءة صفراء في السقف، الإضاءة شاحبةٌ غيرُ كافية، لا تنفكّ ترتعش من حينٍ لآخر.
ثمة رجلٌ مصلوبٌ إلى الجدار، عارٍ تمامًا، فارجٌ ما بين قدميه، كاحلاه ويداه مثبتةٌ بالجدار عبر أصفادٍ وأغلالٍ حديديةٍ.
يشدّ خصره إلى الجدار الرطب حزامٌ حديديٌّ صدئٌ تنبثق منه نتوءاتٌ كأنها المسامير، عددٌ منها انغرس فعلاً في عضلات بطنه الظاهرة.
على جسده آثارٌ متعددةٌ، وكأنما خضع لتعذيبٍ طويلٍ، رهيبٍ.
الرجل المصلوب أشعثُ الشعر، رأسُه ساقطةٌ، يتمتم بخفوتٍ

وكأنما يهذي، أو يبكي.

يرفع رأسه بإرهاقٍ عظيم، إنه د. رؤوف.

على جانب من الحائط، مساحةٌ مفردةٌ للوحةٍ خشبيةٍ، ثُبِّتَ عليها بدبابيس عددٌ من أوراقٍ صحفيةٍ صبغها القِدَم باللون الأصفر، حملت عناوينَ رئيسيةً متباينةً:

(التمثيل بجثث أسرة ابنة مقاول شهير)

(العثور على جثة ابنة المقاول المشهور وقد سُرقت أعضاؤها)

(إحدى الضحايا تم انتزاع جنينها وكبدها)

انهارت رأس رؤوف مرةً أخرى إلى صدره، ثبتت عيناه على الأرضية المتسخة التي جفّت عليها بقعٌ من آثار دماءٍ، انتفض بذعر مع رؤيته حذاءيْن شديديْ الأناقة، رفع نظره مفزوعًا ليرى بنطالاً، يعلوه قميصٌ، ثمّة رابطة عنقٍ مرتخيةٍ، شهق برعبٍ حينما طالع وجه رعد متصلبَ الملامح. رمقه الأخير بنظرةٍ حملت بُغْضَ الدنيا كلها، تقدّم إليه ليشد جفنيْه بمشداتٍ طبيّةٍ كي يحول دون إغلاقهما.

بقلمٍ أسود؛ خطّ رعد خطًا تمامًا حول موضع كبد رؤوف، ثم حول كليتيه.

نظرٍ رؤوف إليه بهولٍ وارتياعٍ وعدم تصديق، تناول رعد سكينًا ضخمةً صدئةً، شرع رؤوف بصراخٍ هستيريٍّ جنونيٍّ ورعد يدنو

منه بملامحه الجامدة القاسية.

وبدقةٍ عاليةٍ؛ وبلا ذرة تردد، حزّ رعد بالسكين تمامًا فوق الخط الأسود.

وتناثرت دماءٌ قانيةٌ على قميص رعد الفاخر.

وتردد صدى الصراخ المُلتاع في القاعة الرطبة.

تمت بحمد الله

عن المؤلف

- محمد أحمد الناغي: قاص وروائي مصري، من مواليد محافظة بورسعيد.

- يعمل محاسباً- تجارة حرة.

صدر للمؤلف:

- المجموعة القصصية "ظلال الإثم"، عن دار ليلى (كيان كورب) في ٢٠١٢.

- مقال ضمن كتاب جماعي (صندوق ورق) صادر عن دار ليلى (كيان كورب)، في ٢٠١٣.

- قصة قصيرة ضمن كتاب جماعي (حكايات) صادر عن دار الحلم، في ٢٠١٣.

- قصة قصيرة ضمن كتاب جماعي (شمس الغد) عن أدب الخيال العلمي، صادر عن دار الحلم، في ٢٠١٣.

- قصة قصيرة ضمن كتاب جماعي (المنتصرون)، عن الجمعية المصرية لأدب الخيال العلمي، مؤسسة إبداع ٢٠١٤.

- رواية «النِطاق المُحرَّم»، عن مؤسسة إبداع، في ٢٠١٣.

- كتب النص السينمائي لفيلم "الصحفي" الذي حاز على موافقة

الرقابة على المصنفات الفنية.

- رواية "الصحفي"، عن مؤسسة إبداع، ٢٠١٤.

الجوائز الأدبية:

- فازت روايته "الصحفي" بالجائزة الرابعة في مسابقة المجلس الأعلى للثقافة دورة محمد البساطي ٢٠١٤

- حصل على الجائزة الرابعة في مسابقة نهاد شريف للخيال العلمي ٢٠١٣، عن رواية (الانعكاس الكوني).

- فاز فيلمه القصير "مكالمة"، المأخوذ عن قصة بالإسم نفسه، من مجموعته القصصية "ظلال الإثم"، بالجائزة الرابعة بمسابقة مؤسسة التفكير الإيجابي الأولى ٢٠١٣، كاتباً له السيناريو والحوار. كذلك اشترك الفيلم في عدد من المهرجانات الدولية للأفلام القصيرة.

http: / /www.youtube.com /watch?v=c2mPUfUVDrI

- حصل على الجائزة الأولى في مسابقة إحسان عبد القدوس ٢٠١٢ عن القصة القصيرة (دم الأخوين).

- فاز بجائزة وزارة الشباب في القصة القصيرة عن قصته "البئر" في ٢٠٠٨.

***

للتواصل مع الكاتب: writernaghi@yahoo.com